

ثلاث روايات قصيرة

من اليمن الحزين

البهلوانة - ميكروباص صنعاني - بلدوز أحمر
روايات



حميد عقبي



ثلاث روايات قصيرة من اليمن الحزين

روايات

حميد عقبي



حميد عقبي

كاتب وناقد، فنان تشكيلي
ومخرج سينمائي ومسرحي
يمني مقيم في باريس



هذا الكتاب

يضمّ هذا الكتاب ثلاث روايات قصيرة تتقاطع في المكان اليمني، وفي الانشغال بالذاكرة اليومية، والهامش الاجتماعي، وتحولات الإنسان تحت ضغط الخوف، والعنف، والأسئلة الأخلاقية. لم يجمع بينها خط سردي واحد، ولكن سنلمس رؤية إنسانية مشتركة ترى في السرد وسيلة لفهم ما يمرّ به الفرد والمجتمع، بعيدًا عن الخطابة أو التوثيق المباشر.

البهلوانة - ميكروباص صنعاني - بلدوز أحمر، هذه الأعمال الثلاثة كتبت بلغة مكثفة، تعتمد المشهد والتفاصيل الصغيرة، وتمنح القارئ مساحة للتأمل أكثر من تقديم خلاصات جاهزة.



fekralgeria@gmail.com



+213 6 64 64 65 31

Nº- ISBN 978-9969-07-197-9



الجزائر - ورقلة

حميد عقبي

ثلاث روايات قصيرة من اليمن الحزين

البهلوانة - ميكروباص صنعاني - بلدوز أحمر



دار فكرة كوم للنشر والتوزيع

FEKRA.COM.COM

الطبعة الأولى ١٤٤٧هـ - ٢٠٢٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الكتاب	ثلاث روايات قصيرة من اليمن الحزين الهلوانة . ميكروباص صنعاني . بلدوز أحمر
الفئة/القسم	أدب وفن/رواية
اللغة	العربية
صاحب الكتاب	حميد عقي
دار النشر	 دار فكرة كوم للنشر والتوزيع - ورقلة / الجزائر
N°/ ISBN -	رقم الإيداع القانوني
978-9969-07-197-9	01/2026
تاريخ النشر	2026
عدد الصفحات	135 صفحة
مقاس الكتاب	16*24
رقم الطبعة	01
حقوق الطبع	جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
ملخص الكتاب	يضمّ هذا الكتاب ثلاث روايات قصيرة تتقاطع في المكان اليميني، وفي الانشغال بالذاكرة اليومية، والهامش الاجتماعي، وتحولات الإنسان تحت ضغط الخوف، والعنف، والأسئلة الأخلاقية. لم يجمع بينها خط سردي واحد، ولكن سنلمس رؤية إنسانية مشتركة ترى في السرد وسيلة لفهم ما يمرّ به الفرد والمجتمع، بعيداً عن الخطابة أو التوثيق المباشر. الهلوانة – ميكروباص صنعاني – بلدوز أحمر، هذه الأعمال الثلاثة كُتبت بلغة مكثفة، تعتمد المشهد والتفاصيل الصغيرة، وتمنح القارئ مساحة للتأمل أكثر من تقديم خلاصات جاهزة.



fekralgeria@gmail.com

contacts@fekracom.com



الجزائر - ورقلة 31 65 64 64 6 +213

إهداء

إلى بيت الفقيه،

مسقط القلب ومنبت الحكاية،

حيث تعلّمتُ أن الإصغاء يسبق الكلام،

وأن العالم يُفهم من شقوقه الصغيرة.

إلى صنعاء

إلى الفنان المسرحي القدير الراحل عبد الله مسعد العمري

إلى الذاكرة التي تمشي على قدمين،

إلى الفن حين يولد في باصٍ عابر،

وفي ضحكةٍ تسبق الخوف،

وفي أغنيةٍ تُبقي الطريق مفتوحًا.

إلى أمي،

اليد الأولى التي دلّنتني على الحياة،

وإلى الوجوه التي عبرت وتركت أثرها.

إلى المدن التي لا تنام،

وإلى حلُمٍ واحدٍ يجمع هذه النصوص:

أن نحيا بسلام،

وأن تظلّ الحكاية ممكنة.

هذا الكتاب: ثلاث روايات قصيرة

يضمّ هذا الكتاب ثلاث روايات قصيرة تتقاطع في المكان اليمني، وفي الانشغال بالذاكرة اليومية، والهامش الاجتماعي، وتحولات الإنسان تحت ضغط الخوف، والعنف، والأسئلة الأخلاقية. لم يجمع بينها خط سردي واحد، ولكن سنلمس رؤية إنسانية مشتركة ترى في السرد وسيلة لفهم ما يمرّ به الفرد والمجتمع، بعيداً عن الخطابة أو التوثيق المباشر.

الهلوانة – ميكروباص صنعاني – بلدوز أحمر، هذه الأعمال الثلاثة كُتبت بلغة مكثفة، تعتمد المشهد والتفاصيل الصغيرة، وتمنح القارئ مساحة للتأمل أكثر من تقديم خلاصات جاهزة.

1. الهلوانة

تعود هذه الرواية إلى مدينة بيت الفقيه في تهامة اليمن خلال أوائل الثمانينيات، من خلال صوت طفل يراقب العالم من موقع الهامش. لم تقم الحكاية على حبكة تقليدية، بل على مشاهد متجاورة تتشكّل حول فضاءات رمزية مثل بئر الهلوانة، والضريح، والمدرسة، والمعصرة. تتحول الهلوانة من بئر للبركة إلى سؤال مفتوح عن العدالة، والإيمان الشعبي، والخوف، والعنف غير المعلن. تشغل الرواية على الذاكرة الطفولية، وتظهر الحكايات الشعبية، والشائعات، والتمييز الاجتماعي، بوصفها جزءاً من تشكيل الوعي المبكر.

2. ميكروباص صنعاني

تجري أحداث الرواية في اليوم الأخير من عام 1999، داخل ميكروباصات صنعانية قديمة. الشخصية الفاعلة والمحركة ليست بطلاً تقليدياً، بل الفنان المسرحي اليمني عبدالله مسعد العمري، الذي لا يظهر بشخصه ذاتاً مركزية، بل كطاقة مسرحية

حيّة. هو لا «يركب» الميكروباص فقط، بل يحوّله إلى خشبة، وإلى مساحة اعتراف وسخرية وتأمل. حضوره يشبه المونولوج المستمر، أو العرض المرتجل، حيث تتقاطع كلماته مع أصوات السائق، والركّاب، وضجيج المدينة.

يعتمد النص على نبرة هادئة، تمتزج فيها الفصحى بالمحكية، ويستثمر الحس السينمائي في بناء المشاهد والإيقاع، بحيث تصبح الرحلة القصيرة مرآة لمدينة كاملة. الزمن هنا ضاغط: نهاية 1999 ليست تاريخاً محايداً، بل لحظة قلق كوني، تتداخل فيها الخرافة عن نهاية العالم مع الإحباط المحلي، والفسل السياسي، وانكسار الحلم الثقافي. في هذا السياق، يصبح عبدالله مسعد العمري مسرحاً متحرّكاً أكثر منه شخصية: ذاكرةً للمسرح اليميني، وصوتاً مقاوماً للخرس، ومرآة ساخرة لمدينة تبحث عن معنى وهي عالقة في الازدحام.

لا تنتهي الرواية بوصول الميكروباص إلى محطة أخيرة، بل بتوقّف مفتوح، وسؤال عن الغد: هل سيكون مستقبلاً، أم نهاية الكون وقيام الساعة؟

3. بلدوز أحمر

تتخذ هذه الرواية زمناً قريباً متخيلاً (2029)، وتدور في مدينة بيت الفقيه أيضاً، حيث يتحول البلدوز الأحمر إلى رمز للقوة العمياء التي تهدم الذاكرة والمكان باسم «التحديث». تتقاطع مصائر شخصيات متعددة: معلّم، شابات جامعيّات، وعالم يتداخل فيه الديني بالسياسي والتقني. لا تقدّم الرواية سرداً مستقبلياً خالصاً، بل تمزج الواقع بالخيال لتطرح أسئلة عن الخوف، والمراقبة، والعنف، وإمكانية النجاة عبر المعرفة والحب.

في مجمله، يقدّم هذا الكتاب ثلاث تجارب سردية قصيرة، مستقلة في حكاياتها، لكنها متجاورة في رؤيتها، تشترك في الاهتمام بالإنسان اليميني العادي، وبالمدينة بوصفها ذاكرة حيّة ومجالاً للصراع والمعنى.

تقديم

لم يكن جمع هذه الروايات الثلاث في كتاب واحد قرارًا تقنيًا ولا رغبة في تكثيف الإنتاج أو توسيع عدد الصفحات. لم أفكر بالكتاب بوصفه منتجًا. حين أنهيت كل رواية على حدة، كنت أظن أن بينها مسافات زمنية وأسلوبية كافية لتبقى متفرقة، لكن مع مرور الوقت شعرت بشيء خفي يربطها، شيء لا يرى بسهولة، لكنه يُحسّ أثناء الكتابة وأثناء الصمت بعدها.

ربما لهذا بدت لي هذه الروايات، حين وُضعت جنبًا إلى جنب، كأنها فيلم من ثلاثة أجزاء، لم تكمل حكاية واحدة، بل تتشارك القلق نفسه. الأزمنة مختلفة، الأمكنة تتكرر أحيانًا وتبتعد أحيانًا أخرى، لكن السؤال العميق واحد: كيف يعيش الإنسان في مكان يراقبه الخوف؟ وكيف يحلم في ظل مراقبة دائمة، ظاهرة أو خفية، سياسية أو اجتماعية أو أخلاقية؟

في «الهلوانة» عدتُ إلى الطفولة وزمن البراءة، زمن التشكّل الأول للوعي. الطفل لا يفهم العالم، لكنه يلتقط إشارات كلها. يسمع أكثر مما يُقال له، ويرى أكثر مما يُراد له أن يرى. هناك، في مدينة بيت الفقيه التهامية الصغيرة، يتشكّل الوعي عبر الحكايات الشعبية، والخرافة، والدين، والخوف، والتمييز. لم أكتب الرواية لاستعادة الماضي، كأي حاولت فهم كيف يُزرع القلق مبكرًا، وكيف تتحوّل الأسطورة اليومية إلى أداة ضبط غير مرئية.

في «ميكروباس صنعاني» انتقلتُ إلى لحظة زمنية ضاغطة: اليوم الأخير من عام 1999. مدينة مكتظة، زمن يتقدّم نحو المجهول، وشخصية صديق ومعلم هو الفنان المسرحي عبدالله مسعد العمري وهو شخصية مسرحية بديعة تتحرك داخل الميكروباس كأنها عرض حيّ. هنا لم يكن المكان ثابتًا، بل عابرًا، لكن العبور نفسه

صار مسرحًا. الميكروباص مساحة اعتراف جماعي، تتداخل فيها الأصوات، والضحك، والسخرية، واليأس. لم أبحث عن بطل، بل عن صوت، عن طاقة تقاوم الصمت، ولو بالهزل، ولو بالمونولوج.

أما «بلدوز أحمر» فهي عمل ينظر إلى الأمام، لكنه لا يهرب من الحاضر. زمن قريب، مدينة مألوفة هي مدينتي بيت الفقيه بمحافظة الحديدة، وهي هنا تواجه قوة تهدم باسم التحديث. هنا يصبح الخوف أكثر تنظيمًا، والمراقبة أكثر نعومة، والعنف أقل صخبًا لكنه أعمق أثرًا. لم أرد كتابة رواية مستقبلية، بل رواية تسأل: ماذا لو استمر هذا المسار؟ وماذا يبقى للإنسان حين تُهدم الذاكرة باسم التطوير للسيطرة عليه واستعباده؟

لا أحب المقدمات، ولا أحب تقديم أعمالٍ بوصفها «مهمة» أو «متميزة». الكتابة عندي ليست بيانًا، بل تمرين. تمرين على النظر، على الإصغاء، على الحلم. كل نص أكتبه هو محاولة لفهم الحياة وليس لتفسيرها، ومحاولة للنجاة وليس للبطولة. إن توقفت عن الكتابة، لا أتوقف لأنني قلت كل شيء، بل لأنني تعبت من السؤال، ثم أعود لأن السؤال لا يتركني.

رغم كل هذا القلق، لم أكتب هذه الروايات ضد الحياة. كتبها لأنني أؤمن بها. لأنني، مثل كثير من اليمنيين، أحلم بيمين سعيد: بلد يعيش فيه الناس دون خوف، دون مراقبة، دون عنف يومي يتسلل إلى البيوت والأحلام. أحلم بأن تتوقف هذه الصراعات الوحشية التي استنزفت البشر والحجر، وأن يحلّ السلام ويكون واقعًا بسيطًا يسمح للناس أن يتنفسوا.

الكتابة لا تصنع السلام، لكنها تحافظ على فكرة الحلم حيّة. تحرسها من النسيان. هذا الكتاب، في جوهره، ليس عن الحرب، بل عن الرغبة في نهايتها. عن انتظار غدٍ آمن. غدٍ يمكن فيه لليمن، ولنا جميعًا، أن نحلم بلا خوف.

حميد عقبي

نورماندي. يناير 2026

الجهلوانة

هذا العمل

نوفيلـا -البهلوانة-

تقدّم رواية أو نوفيلـا «البهلوانة» سردًا مكثفًا وملحات عن تشكّل الوعي في مدينة تهامية يمنية/بيت الفقيه . محافظة الحديدة، خلال أوائل الثمانينيات، من خلال صوت طفل يراقب العالم من موقع الهامش، وليس المركز. لا تعتمد الرواية على حبكة تقليدية متنامية ومعقدة، لكنها تتقدّم عبر مشاهد متجاوزة وحكايات تتشابك وتتراكم لتصنع صورة مدينة تعيش بين الأسطورة والدين، الخوف والرجاء، والواقع والحكاية.

تتمحور الرواية حول فضاءات رمزية مثل بئر البهلوانة، ضريح الولي أحمد بن موسى العجيل، المدرسة، المعصرة، والحارة. كل هذه الأماكن لا تبدو خلفيات عابرة، بل عناصر فاعلة في تشكيل الوعي الفردي والجماعي. البهلوانة تتحوّل من بئر تُزار طلبًا للبركة إلى سؤال مفتوح عن العدالة، والتضحية، وحدود الإيمان الشعبي. وفي مقابلها، تظهر المدرسة بوصفها صورة رقيب وفضاءً للضبط، وليس للمعرفة، حيث يُسمح بالأسئلة النظرية ويُقمع السؤال الأخلاقي المباشر.

يعتمد السرد على صوت طفل يبدو منسجمًا مع عمره، دون أن يدّعي الحكمة ولا يقع في السذاجة. الأسئلة الكبرى — عن الله، الفقر، الحرب، الحب، الجسد، والشر — تُطرح ببراءة متوتّرة، وتُترك بلا إجابات نهائية. حكايات مثل ماري أنطونيت بنت الصائغ، شبح الرئيس إبراهيم الحمدي، الحمار الجريح، والدهيلية . الرجل المتشبه بالنساء — تعمل كمرآيا ونوافذ تكشف تناقضات المجتمع، دون خطاب إدانة مباشر.

تلعب القراءة والكتابة دورًا محوريًا في هذا النص، خصوصًا مع حضور رواية «فرانكشتاين»، التي تتحوّل إلى استعارة لفهم العنف والنبذ وصناعة الشر. الكتابة تُقدّم هنا، ونشعر أنها فعل نجاة فردي، لا مشروعًا بطوليًا.

تنتهي هذه النوفيلاً بنهاية مفتوحة، حيث يضيع الدفتر وتبقى الحكاية. «الهلوانة» عمل يشغل على الذاكرة بوصفها مساحة مساءلة، ويقدم معملًا يقترب من نوع نوفيلاً الوعي الهادئة والإنسانية، عن مدينة تُحكى أكثر مما تُعاش.

الفصل الأول

إنها الساعة الثالثة عصرًا. بدأت ليونة الشمس واختلف ضوءها، تقصر الظلال ببطء متأنٍ. ما يميّز مدينة بيت الفقيه ربما يتمثّل في هذه اللحظة، لحظة العصر، نهاية الظهيرة الحارقة. للعصر نكهته الخاصة؛ الكثير من الناس تناولوا الغداء قبل صلاة العصر، ثم تتحرّك النسوة والأمهات ويغسلن أطفالهن. اليوم مختلف جدًّا، لأننا بعد ساعة سنتوجّه إلى قرية التربة حيث ضريح الشيخ أحمد بن موسى بن عجيل، مؤسس المدينة وحامها منذ سبعة قرون، وبجوار الضريح بئر الجهلوانة.

أمي تحب ضريح العجيل، ومنه نأخذ تراب البركة نضعه على أجسادنا. إنه بارد ومعطرّ بالريحان، ويختلف عن أي تراب آخر، حتى أنا أعتقد ذلك. نعم، أنا في الصف الخامس الابتدائي، ونحن في عام 1982. بيتنا يقع في جنوب حارة المحازرة، ومنزلنا مشهور جدًّا بفضل معصرة زيت السمسم التي يمتلكها والدي. جدي كان من أثرياء المدينة، وقد قُتل خلال فترة تُسمّى «الفلج»، حروب وصراعات بين قوات التحرّر التهامي وجيش الإمام، والذي تمكّن من خلق فتن وصراعات وحروب صغيرة بين القبائل وأهالي المدن، وأحيانًا بين أحياء المدن.

الجميع يُقول بأن جدي كان مليونيرًا حكيماً كريماً، لكنه قُتل ومات وتبدّدت ثروته، نُهب، وكان عمي، الابن الأكبر، يحب السفر والبهجة والفرقة، ويسافر إلى عدن والحبشة، وهكذا خلال أعوام قليلة ذهب كل شيء تقريبًا.

المهم الآن أنني جاهز وسأذهب لاستعجال السيارة. عائلات كثيرة ستذهب، كل عائلة تحمل للجهلوانة بعض السكر والعسل والحلويات، وبعضهم سيجلب معه السمن. الجهلوانة تحب السكريات والحلويات. عندما نصل، كل واحد يمسك بنذره ثم ينادي

الهلوانة ويطلب حاجته: قضاء دين، أو رزقاً من الله، أو شفاءً من مرض، أو جلب سعادة، والخروج من كربة.

ذلك الزمن لم تكن قد ظهرت الدعوات والفتاوى التي تحرّم، بل تجرّم، كل من يزور الهلوانة وبهها أي شيء.

كنا نستقل سيارة هايلوكس. تكلفني أمي بمساعدتها في حراسة الصغار عند الضريح وعند البئر، فأحياناً يحدث ازدحام. شيء لا يُصدّق: خلق كثير ومشاعر متنوّعة، بكاء وضحك وفرح، وأكثر الزوار من النساء والأطفال، أو رجال كبار في السن. الشباب والرجال الأزواج، إذا اصطحبوا زوجاتهم وأطفالهم، يفضلون البقاء بعيداً.

تمنّيت في كل زيارة أن تكون معي كاميرا، وأصوّر بعض اللحظات المؤثّرة. ذهبت واندثرت مئات اللحظات ولم نوثّقها في صور. لم يكن أحد يفكر أن مثل هذه الظواهر قد تندثر، وأن يُسدّ ويُردم بئر الهلوانة، ويصبح زيارة الضريح فعل شرك وإفك عظيم.

الشيء المبهج في هذه الرحلات بالنسبة لنا كصبية، أو ربما بالنسبة لي، كان تأمل الطبيعة: النباتات وحركة الريح الخفيفة. في هذه الرحلة يبدو أنه هطل مطر خفيف جداً هنا، ولم يهطل على حارتنا. هنا شجر السدر والنباتات الصغيرة تحتاج إلى المطر؛ المطر يجعلها فرحة ترقص. الفراشات الصغيرة أيضاً، وإن كانت هنا لا تظهر ملوّنة كتلك الفراشات في مسلسلات الكرتون التلفزيونية. أهل الريف يمتلكون كلاباً وينادونها، تلعب وتركض مع أطفالهم، لكنها أيضاً لا تشبه تلك الكلاب في مسلسلات الأطفال التلفزيونية، ولا حتى تلك الكلاب التي أتخيلها في بعض الكتب التي بدأت أقرأها.

بعض اللحظات يحلو لي أن أقف وأقارن بين الحقيقة، أقصد الواقع، والأشياء في التلفزيون أو الكتب، وكذلك حكايات الجن والعفاريت التي أسمعها من جارتنا،

صديقة أختي، وهي فتاة جميلة، حكاة وممثلة متميزة، تروي عشرات القصص والفكاهات والأحادي، لا أحد يقدر أن يتفوق عليها.

لم يكن لي جد، ولم تكن جدتي من أبي بارعة في الحكايات، وجدتي من أمي كانت تُرهق نفسها في العمل. بائعة اللحوم، سيدة تُسمى زوجة الطافي، كانت جيدة في الحكايات. لم نكن مجتمعًا ريفيًا ولا مدنيًا، بين البين، لكن الريف حولنا. قرية الأخدام قريبة جدًا، وهم يعيشون كأهل الريف؛ لديهم كلاب وقطط، وبيوتهم ليست مسورة بالجدران، ونساءهم كاشفات لا يتحجبن، ويختلط الرجال بالنساء. هذا لم يكن يحدث في حارتنا. فهمت أننا لسنا مثلهم، لكل فئة عاداتها وتقاليدها.

لكننا نذهب إلى المدرسة ونشاهد التلفاز. لم يكن أطفالهم يحبون المدرسة مثلنا، وهم يتميزون بأنهم أقوىاء البنية، ولون أجسادهم أسود. نعم، هم سود البشرة، بشعر فلفلي وأنوف ضخمة وشفاه غليظة.

في ثقافتنا الشعبية يوجد تمييز واضح وتفرقة عنصرية. الأطفال يسمعون آباءهم ينصحونهم، نسمع عبارات مثل: لا تفعل كما يفعل الأخدام كذا وكذا، لا تأكل كما يأكلون، ذاك أكل حق العرب وذلك حق الأخدام، الذي يفعل كذا وكذا يصبح خادمًا، الخادم ناقص، وآخرون يقولون قليل أصل، وكل الرذائل يمكن أن تُلصق به. هذا الضجيج عنهم يجعلنا نخاف منهم، والصغار قد ييكون ويهربون إذا رأوا خادمًا أو خادمة.

بعض فقراء الأخدام، في حالة رثة، يقفون عند الضريح ويحصلون على بعض الصدقات. يشاهدون العسل والحلويات الشهية، والسكر يُرمى إلى البهلوانة، والقليل من يترك شيئًا لفقراء الأخدام. يفرحون جدًا ولو ببعض السكر، يتقاسمون ويلعقونه بهم وتلذذ غريب.

كنتُ مجرد طفل أسأل نفسي في صمت: هل هؤلاء بشر كاملون مثلنا؟

مثلاً، بريق في أعين أطفالهم، بريق يوحي بالقلق وربما الخوف والأسئلة أيضاً، كأنني كنت أكثر حساسية، لم ألاحظ أن رفاقي يهتمون بكل هذا.

أعرف المحلبد، يأتي أحياناً ويعمل عندنا في المعصرة، وهناك العربي الخادم الذي يأتي بالبرسيم الخاص بجمال المعصرة. بعض رجال الأخدام يبدون خضوعاً، ويقولون إننا بيض وهم سود، نحن العرب وهم الأخدام، وتجد فئة أخرى هم العرب السادة، وبعض السادة يتعاملون بفوقية مقرزة مع الأخدام.

فكرت أكثر من مرة أن أبدأ وأكتب وأدوّن كل هذه الهواجس والمشاهد. سأحتاج إلى عشرات الدفاتر والأقلام، سأرتكب أخطاء إملائية كثيرة، خطي ليس جيداً جداً، ربما متوسط أو جيد. خوفي من الأخطاء الإملائية والنحوية يجعلني أراجع عن فكرة التدوين، ثم الدروس والواجبات الكثيفة، والذهاب إلى معلّم تلاوة القرآن وحفظه.

العطوي شخصية لا تُنسى. رجل مبتسم، نادراً ما يضع قميصاً أو فانيلة على الجزء العلوي من جسده، يتحرك بنشاط، لديه بقالة داخل بيته، ويربّي خرفاناً ولديه أبقار، يبيع حليهن، يعمل ويعمل ويعلم القرآن ولا يأخذ عليه أي أجر.

يسكن العطوي في حارة الحوك، حارة أهلها بسطاء وأقرب إلى الريفين. داخل بيوتهم تنمو أشجار التين والليمون، ويربّون الدجاج والماعز والأبقار، وبعضهم يسكن مع حيواناته وطيوره من دون حتى فاصل صغير، ونساؤهم وفتياتهم لا يهتمن كثيراً بمظهرهن.

أرى أُمي تضع العطر والقليل من المكياج. نحن أيضاً نربّي بعض الدواب، لكنها في مكان لوحدها. الدجاج أحياناً يثيرون الشغب ويقفزون فوقنا ونحن نأكل، جميعنا نصرخ فيهم، لكننا لم نقتنِ كلباً. القطط يُقال إنهم ضيوف الرحمن، وخاصة إذا كانت القطّة حاملاً، فإننا نفرح عندما تلد في بيتنا.

أمي امرأة تحب بعض التقاليد الروحانية، مثل وضع الريحان وإشعال البخور، وأحياناً الشمع، وخاصة في الشعبانية.

بيتنا كذلك يتميز بإقامة الحضرة السنوية الجيلانية. نذبح كبش الشيخ عبد القادر الجيلاني ونطعم خلقاً كبيراً من الناس. يتحوّل بيتنا إلى مسرح: تسبيح وتهليل وتكبير، وتنتهي الليلة بالحضرة. يقولون إن الشيخ عبد القادر الجيلاني يحضر في أتباعه، يتراعدون بالرؤوس مثل الثيران الوحشية، ثم يربطهم شيخهم. يهرع إليهم الناس ويسألونهم عن الغيب، أو عن شفاء لمريض، أو عودة غائب، عن أمنية أو خوف.

نحن فقط الأطفال، لا أحد يسألنا عن أمانينا وخوفنا. كنت أرغب أن أسأل أحد خدام عبد القادر الجيلاني عن البهلوانة، قصتها كاملة. أظن أن لأي شيء مقدس، أو أي شخص يصل إلى مثل هذه القداسة، لا بد أن تكون له رواية طويلة.

الفصل الثاني

بدأت تظهر بعض النقاشات، معصرتنا أشبه بمختبر سردي يزورنا ناس من كل جنس ولون، أسمع أحياناً حكايات قصيرة كاملة أو ومضات متشظية، جاء الفقيه وكان غاضباً وتحدث عن هؤلاء الشباب الجدد، يأتون بدين جديد ويقولون زيارة الأولياء والأضرحة والقبور بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

النار، جهنم، يوم القيامة ويوم الحساب والعقاب، أحاديث وحكايات ومشاهد يحاول عقلي الطفل أن يفهمها ويرتبطها، الدين، الحلال والحرام، لا توجد قائمة ورقة أو لافتة تُعلق بالمساجد لنعرف كل الحرام وكل الحلال، لا يبدو الجميع متفق عليها، أفكر في صمت ولا يبدو رفاقي مهتمين جداً بهذه القضايا، أحدهم قال: أن الأطفال والمجانين لا يعاقبون ولا يدخلون النار إذ ماتوا.

قال آخر أنه سمع أحد الفقهاء يقول يتحول الأطفال الصغار جداً الرضع إلى طيور والأطفال أمثالنا يصبحون جميلين ويتحولون إلى ولدان مخلصين يخدمون أهل الجنة.

تناقشنا وأختلفنا وكل واحد منا كان ينقل ما يسمعه من فقيه أو معلمي القرآن.

مدينتنا مليئة بالحكايات ربما تكون مدينة المليون حكاية وحكاية، ذات صباح يوم ضجت المدينة بهروب ماري أنطونيت من المدينة بصحبة حبيب وعشيق، اسمها الحقيقي محسنة، أي الجميلة وهي بنت الصائغ ذهبان، أنا رأيته مرة واحدة فقط، ويلة ورشيقة، بيضاء الوجه وشعرها أشقر، نعم بيتهم يقع في طريق السوق وذات مرة اشتري أبوها زيت السمسم وطلب أن نوصله، كلفني أبي بفعل ذلك.

بيتهم يشبه البيوت في مسلسلات السهرة، أرائك وكراسي ولوحات جدرية، وطاولات للأكل، يومها رأيته، حقاً فعلاً إنها أجمل من ماري أنطونيت ملكة فرنسا التي

شاهدناها بالتلفزيون وأجمل من سميرة توفيق ونجاة الصغيرة. لأول مرة أرى فتاة شابة ناضجة. يقولون أن والدها يربي بناته وآولادة تربية متحررة ويسافرون في اجازات إلى عدن والقاهرة ويخلعون الحجاب ويذهبون للبحر يسبحون مثل الأجانب.

أحبت ماري شابًا لكن والده رفضه، لذلك هربت معه، إلى أين هربا؟

سيظلال حديث المدينة لأيام وربما أسابيع، البعض يقول أنه أقام عزاء وأعتبرها ميتة البعض يقول أن الأب رصد جائزة لمن يقتل ابنته ويقطع رأسها، بقيت لليالي أعيش كوايبس مرعبة، أرى ماري أنطونيت ترقص وتضحك ثم أرى أحدهم يقتلها ويقطع رأسها، مشهد قطع الرأس قاس جدًا ومرعب إلى أبعد حد.

سمعنا بعد ذلك أن ماري أنطونيت وحببيها وصلا إلى روما، روما أعلم أنها عاصمة إيطاليا مكتوبة عندنا في كتاب الجغرافيا.

يقولون هنا بأن الناس في روما يمكنها أن تمشي عريانة، يا لها من فضيحة ماري أنطونيت بنت الصائغ ذهبان، بنت مدينتنا سوف تمشي عارية مع عشيقها وقد تبدل وتختار عشيقًا آخر، يقولون أن هناك حرية للمرأة في الملابس وتخرج وقتما تشاء وتفعل ما تريده ولا يحق للزوج أن يضرب زوجته؛ أو الأب يضرب ابنته كما هنا.

كأنني أطمئنت على الجميلة ماري وأن لا أحد سيقطع رأسها مثل ملكة فرنسا، بقينا نسمع ونثرثر نحن الصبية بين هنا مدينتنا وهناك روما الحرية.

هدأت وبدأت تتلاشى حكاية ماري أنطونيت بنت الصائغ، وكأن الناس تشعر بالملل وتتمنى حدوث تطوّر جديد في هذه الحكاية. لاحظت أمني فزعي وكوايبسي، وقررت أن نحجّ إلى النصب التذكاري الخاص بالشيخ عبد القادر الجيلاني، الذي يقع في حارة الهنود، شرق المدينة. كنت أظنّه قبره، لكنني سمعت أنه أثر من آثاره. ما فهمته أن الشيخ عبد القادر الجيلاني زار مدينتنا ومشى أو جلس في هذا المكان، وهكذا أُقيم له

شيء يشبه القبر. كان سادن القبر جشعًا، ويفضّل المال، وليس جلب الخبز والتمر وتوزيعهما كصدقة.

دائمًا ما كنت أتمنى لو أن هذا المأثر يكون بجوار المهلوانة وضريح ابن عجيل. تخيلت المكان كأنه ممتلئ بالشموع وأعواد الرياحان والبخور.

لم أخبر أمي ولا سادن القبر أن ماري هي سبب قلقي. كان يبدو كأنه يشبه كهنة الهندو الذين نراهم في الأفلام الهندية: ملابس بيضاء قصيرة، يمشي حافيًا. شعرت وكأن منظره لا يتوافق مع رقة وقداسة الجيلاني. أتصوّر الجيلاني رجلًا أبيض البشرة، وسيما وكثيف الشعر، بلحية مهذّبة. تخيلته أكثر من مرة رجلًا في نهاية الخمسينيات من العمر، يمسك بعصا، يلبس جُبة وعباءة وعمامة. إنه هادئ، مبتسم، يأخذ طلبات الناس البسطاء، ثم يصلي كثيرًا ويدعو للناس الذين يزورونه ويستغيثون به.

عدنا إلى البيت. كانت أمي موقنة أنني سوف أنال نومًا هانئًا. اعتقدت ذلك، لكن ما يقلقني شخصية السادن ذات الكاريكاتير، لا تناسب مقام الجيلاني. مشكلتي أنني أعلّق في قضايا وأشياء صغيرة، وقد لا ينتبه إليها أحد، ثم تصبح مزعجة ومربكة لي، وتؤثّر على نومي وصحوتي.

تلك الليلة كان الحلم كأنه فيلم طويل. عرضت ماري أنطونيت بنت الصائغ حياتها لي، وكشفت أشياء لا تُصدّق، ثم سمعتها تتحاور مع والدها، الذي يشكو من الفضيحة ويسبّها لأنها فعلت ما فعلته.

ردّت وهي تبكي وتساءل عن أخواتها وأمها، وقالت إنها أحبّت الشخص ولم تفعل سوى أن يبارك الحب ويوافق على زواجهما.

قال لها إنه لا يعيب فقره، ولكن أصله. وأخيرًا ضحك وقال: هروبك أهون من أن يقولوا ماري أنطونيت تزوّجت خادماً.

قالت له إنه متعلّم ولديه شهادة جامعية، يغني، صوته جميل، ويرقص ببراعة،
ووصفت حياتها في روما بأنها سعيدة.

كان حلمًا طويلًا جدًّا، أظن أنه استمر ساعات. ليت لي الوقت وأظلّ اليوم كاملاً
أكتب وأدوّن كل الأحداث التي شاهدها، وأدوّن جمال شوارع روما وتلك الموسيقى.
الفراشات ملوّنة، وأجراس الكنائس كانت واضحة.

الفصل الثالث

خفتت، تلاشت وكأنها انتهت حكاية ماري أنطونيت بنت الصانع، لكن مدينتنا تنام على حكاية وتصبح على أخرى. بدأت شائعات ظهور شبح الرئيس إبراهيم الحمدي. سمعت رفاقي في المدرسة يتهامون بأن الحمدي يظهر وهو يمسك بفانوس، وبيده سلاح يبحث عن قاتله، لكن البعض يقول إنه يمنع السرقات والعنف ويعاقب الذين يظلمون الآخرين.

في وقت الاستراحة ناقشنا هذه القضية. لدينا صديق اسمه الصوملي، وهو بارع في الرسم الغرافيتي، لكنه يُنفذ أكثر من التخيل. كان يحوّل نقاشنا إلى غرافيك، رسم كاريكاتيري ليس موعلاً في الغموض، أو رسومات تشبه الرسوم المتحركة، يرسمها على الجدران الخارجية للسينما.

ثارت أسئلة في رؤوسنا: لماذا يظل الحمدي في مدينتنا وهو لم يُقتل هنا؟ قُتل في صنعاء هو وأخوه. نعرف حكايته، وكنا نغنيّ له ونقول: الحمدي ركب كهرباء، والغشحي ما أحد يعرفه.

لم نسمع بمحاكمة قاتليه. الناس تقول إنه كان سيزور عدن ويعمل معهم وحدة، وأن بعض القبائل قتلته لأنهم لا يريدون الوحدة مع عدن، وهناك من يقول إن دولاً لا تريد أن يكون اليمن موحدًا وقويًا.

لم نكن نفهم السياسة ولا ماذا تعني وحدة، لكننا كنا متعاطفين مع رئيسنا المظلوم، وخاصة أنه زار مدينتنا، وهناك من يقول إن خاله يسكن بيت الفقيه.

لم أكن قد قرأت شيئاً في السياسة. كنا نسمع أحياناً عن الثورة وحرب الإمام، لكن التلفزيون لا يتحدّث عن بلدنا، ولا عن تهامة، بأنها حاربت الإمام.

ربما جاء الحمدي إلى مدينتنا يطلب دعمنا، ولكن لماذا يظل يتجول في ظلمة الليل وحيداً؟ وماذا بوسع الناس البسطاء أن يفعلوه؟ هم يحبون الحكايات. وفعلاً اشتعلت المدينة كلها تتحدث عن شبح الرئيس الحمدي، وأنه طيب وليس شريراً، ويحارب الجن والعفاريت الأشرار، لكنه صامت، لا يتحدث ولا يحكي حكاية اغتياله مع أخيه وبعض رفاقه في بيت أحد الضباط.

سبق وأن حدثت شائعات عن جنّ وعفاريت وأشباح، ولم يتدخل خطباء الجوامع. هذه الجمعة كانت مختلفة، وتحدث الخطباء معتبرين أن الذي يؤمن بالأشباح فهو كافر، وأن الموتى يذهبون عند ربهم ليحكم بينهم، ولا يمكن أن يعود إنسان إلى الحياة لينتقم من موته.

تحول الضجيج والحكايات إلى همس. نحن أطفال، ويعتقد الكبار أننا لا نفهم كل ما يحدث. لقد فهمنا أن هناك من أخبر، ربما الرئيس الحالي، بأن الحمدي ظهر في مدينتنا، وأكد أنه أرسل عساكر ليقبضوا عليه، وطلب من خطباء الجوامع أن يحذروا الناس من الإيمان برؤيته، ليكون وحيداً ويحزن ويمسكونه. قال رفيق، وهو واحد من الذين يعجبهم الحديث عن الجن والعفاريت، قال إن الرئيس سيمسك الحمدي ويحرقونه حتى لا يعود. كانوا فجّروه وقتلوه، والآن سوف يفجّرونه ويحرقونه حتى يصبح رماداً.

شعرت بأن لديّ فضولاً ورغبة في معرفة قصة موت الحمدي، وأنه سيأتي في أحلامي ويحكي لي أشياء كثيرة لا يعرفها أحد. خاف الكثير من الناس، وظهرت حكايات صغيرة، وعاد النقاش عن الهلوانة: هل حرام أم حلال أن نهديها الحلوى والكعك والعسل، ونوزّع بعض السكر على الفقراء المعدمين؟ وأين تذهب تلك الهدايا؟

قالوا إن الأشياء تسقط على طربال في وسط البئر، ويأتي السدنة ويرفعون الطربال ويتقاسمون الغنيمة.

كأن هذه السرديات الصغيرة تُذاع من أجل امتصاص سردية شبح الحمدي، الذي يحاول ويصارع من أجل أن يظل صوته مسموعًا.

انتظرته ليالي كثيرة، ولكن الحمدي لم يزرنني في منامي. خفتت الحكايات عنه. زعم بعضهم أنه أخبرهم بأنه سيعود إلى عالم البرزخ، وأن العدالة في الآخرة وليس في الدنيا.

أنا طفل يُقال إن نجبي كاشف، وبأني يمكن أن أرى الجن، لكن الأشباح شيء آخر. حاولت أن أفهم. في درس التربية الدينية، تحدّث المعلّم عن الجن، وقال إنهم حقيقة مذكورون في القرآن، أمّا الأشباح فليست حقيقة، وتصديق الكلام عن الشبح حرام. شعرنا كأن المعلّم المسكين يقول: لا تتحدّثوا عن شبح رئيسكم الحمدي، فهو ممنوع. يظهر الأمر بوضوح أنه منع رسمي واضح.

انتظرتُ الرئيس الحمدي لمدة أسبوع كامل، أستحضره قبل منامي وأهتف له. الغريب أنني لم أكن خائفًا من أن أطلب لقاء ميت، ربما لم أفهم جيدًا معنى أن يكون الإنسان ميتًا. في هذه الفترة فُتحت نافذة لرؤية الموت. كنت أسمع أن الموت راحة، خاصة للذين لديهم أعمال طيبة، فإن الملائكة تفتح لهم طاقة للجنة، ولكن هناك من يتحدّث عن أهوال مخيفة تُسمّى عذاب القبر.

عودة شخص أو روح، دُمّر جسده كله، أمر مثير للجدل. الناس هنا يبحثون عن الحكايات، وليس الجدل للوصول إلى الحقيقة. إنهم يؤمنون أن الحكاية هي الحقيقة، ولا يتحمّسون للحقائق التي لا تُصاغ في شكل حكايات.

بدأت أشعر أن ثَمّة خطبًا حدث لشبح الحمدي، ربما أمسكوه وحبسوه. نمت تلك الليلة دون أن أستحضره، والمفاجأة أنني أحلم الآن كأنه فيلم وثائقي، من دون تعليق ولا موسيقى. ثم ظهر الرئيس الحمدي في ثياب نظيفة، ورغم أن الدم يسيل من جسده، إلا أنه كمن يتعايش مع الوضع الجديد: جسد ينزف وينزف، ووجه مبتسم.

تحدّث كأنه في مقابلة، تحدّث عن اليمن، عن الشعب اليمني في اليمن كله، عن العدل والسلام، وأن نطوّر بلدنا.

تحدّث لساعة، وكانت هناك أشياء في السياسة والاقتصاد قالها لم يكن عقلي الصغير يومها ليفهم معناها، مثل الديمقراطية والتحذير من الحرب. لماذا يتحدّث الحمدي عن الحرب والتمزّق ويدعو إلى حب اليمن؟

لم أكن أظن أن هناك من يكره وطنه أو يحبّ الحرب.

الفصل الرابع

في المسجد يقولون إن الحب حرام، يقصدون الحب بين الرجل والمرأة. لا نزال أطفالاً وصغاراً على الحب، ندخل البيوت ولا تتحجّب علينا الفتيات والنساء.

في معصرتنا كان هناك رجل يحبّ الشعر الشعبي التهامي ويغنيّ بطريقته الخاصة قصائد سود معي، ويتحدّثون عن أنه كان يحبّ النساء السوداوات، وينشد أشعار سي شعيب ومحمد المحفلي. الكبار يضحكون ويقهقهون عندما يتحدّثون عن أوصاف النساء وجمالهن.

لم أكن أفكر أبداً في الحب، ولا أن يكون لي فتاة. الرجال المتزوّجون يتحدّثون بالملكية، يقول الرجل: حقي زوجتي، والبعض يقول: البغلة حقي، وهناك من يفضلّ ويستخدم كلمة الحرمة. وعندما يكون الواحد غاضباً من زوجته يسبّها بأنها الكلبة بنت الكلب، وهناك سبّ أكثر قبحاً.

أحياناً يتهامس الكبار وهم يتحدّثون، ولا يريدوننا أن نفهم أو نسمع.

في حارتنا فتيات كثيرات، وعندما يكبرن يتم تزويجهن. لم أكن أنتبه لما يعنيه صدر ومبسم وعيون جميلة، حتى وأنا أسمع قصائد شعبية فيها كلمات أو صور عديدة لا أفهمها؛ الشاعر يصف حبيبته بالغزال أو الظلي أو الطير.

حدث شيء غريب وأنا عائد من المدرسة. رأيت فتاة جميلة، تبدو أصغر مني ربما بسنتين. تذكّرت يوم شاهدت ماري أنطونيت، لكن ماري أنطونيت كانت امرأة ناضجة. كانت البنت تلعب وتقفز الحبل، ثم جاءت صديقتها تناديهما باسمها. اسمها ظلّ رنينه وصداه في رأسي: غيوم. غيوم، يا له من اسم شعري رقيق.

عرفت من تكون، بنت جارنا الطيب، لديه بقالة في السوق. لم أتردّد، وشيء قوي دفعني أن أنتظر قدومه للغداء، ثم اندفعت إليه وطلبت بشجاعة أن يزوّجني غيوم.

قال موافق، وطلب مني مهرًا. سارعت إلى البيت وفتحت صندوق ملابس أمي، والخانة التي يضع فيها أبي المال، كأني فسّرت بأن المال لنا جميعًا، لمن يحتاجه. انتهت لي أختي، ثم أمي، ثم الجميع. سألوني لماذا أخذ المال.

قلت لهم ببساطة: سأنزّج جارتنا غيوم. أمسكوا بي وأخذوا المال وهم يضحكون، ويقولون إنني ما زلت صبيًا، والحب والزواج للكبار، وحرام على الأطفال.

أخذت الموضوع ببساطة، وفعلاً لم أفهم لماذا اندفعت بقوة نحو غيوم. رأيتها كهالة جمال رقيق. لم يكن في عقلي جسدها كجسد أنثوي. شيء يصعب شرحه، وأظنني لن أفصح في توضيحه حتى لو أصبحت كاتبًا أو شاعرًا.

لم أتحدث أنا وغيوم لكني كأني رأيت ابتسامة مخفية في أعماقها، قلتني نفسي ربما نتحدث عندما نكبر وأقنعها أن تُطلق ابتسامتها للكون كله، كنا أطفالاً أو أصبحنا صبية صغاراً لم نكن ننظر إلى أجساد الفتيات الصغيرات كشيء يُستهلك، لم نكن نعرف الشهوة رغم أننا بدأنا ندرس غسل الجناوبة وأسبابه كاحتلام والجماع، الجماع شيء يحدث بين الزوج والزوجة، بدأت أفهم قليلاً ضحك الرجال الكبار وهم يحكون حكايات، يسمونها حكايات الليل وحكايات المتزوجين.

توجد كتابات بالفحم أو الطباشير على بعض الجدران في حارتنا. لم أكن أنتبه لها، مثل عبارة: الحب عذاب. لم أكن متحمسًا للعبارات الشعرية المكثفة جدًا، وكنت أميل إلى الحكايات، إلى الغرق في السرد والتحليق مع شخصيات وأمكنة وأزمنة متعدّدة.

عرفت، ربما، أنني سأصبح كاتبًا عندما أكبر. حقيقةً، لم أتخيّل نفسي عاشقًا. أقرأ قصصًا تتحدّث عن الخير والنبيل ومحبة الكون والطبيعة، قصص الفتيان. ثم تعرّفت على مجلة ماجد، كانت تأتي من أبو ظبي بأعداد قليلة جدًا. هذه المجلة جعلتني أهوى أن أكسب أصدقاء من بقية الدول.

شيء ما قلب كياني، أو ربما كبرت قليلاً. بالصدفة كنت أشتري بعض الزنجبيل لأمي من السوق، وفي السوق يلقون الأشياء بقصاصات صحف أو مجلات. ذلك اليوم رأيت صفحة من مجلة ملوّنة، وكانت لوحة الكابوس للفنان السويدي هنري فيوزيلي. اللوحة تُصوّر امرأة نائمة وقد جثم على صدرها كائن شيطاني، بينما يطلّ رأس حصان بعينين جاحظتين من الظل. أخذت الورقة وبقيت أتأملها. لم أعرف اسم اللوحة ولا الفنان إلا بعد عقود من الزمن، لكن هذه اللوحة جعلتني أفتح عينيّ وأنظر وأتأمل فقط.

أحد رفاقي أخبر معلّم التربية الفنية باللوحة، فطلبها مني. ظننت أنه سيشرحها لي، فسلمته الورقة. تأملها وبقي مندهشاً، ثم ذهب إلى المدير، وعقدوا اجتماعاً واختلفوا حولها. صادروها، ونصحوني أن أمزّق وأحرق أي لوحة شيطانية، أو أي شيء يظهر فيه جسد المرأة أو الشيطان. الشيطان يختفي وراء مثل هذه الصور. مدرّس الدين شرح لنا في عدّة حصص ألغيب الشيطان ومكره وشرّه، ونهايته جهنم خالداً فيها هو ومن يتبعه.

الفصل الخامس

ما شعرت به في ذلك الوقت، مررت بليلة ثقيلة ومكتئبة، وفي صباح اليوم التالي اشتريت دفترًا وصمّمت أن أتشجّع وأكتب، كأني نوح يصنع سفينة للنجاة. الدفتر سفينتي، أظنه سيكون سفينة لي وحدي ولبعض الحكايات. ألصقت شخصية نوح في عقلي وفكري وخيالي، أنا عالق معه في بحر عاصف وماء بلا يابسة. ماذا سأكتب؟ أريد أن أكون سعيدًا وفاضلاً. ما أشعر به حاليًا لن أشعر به بعد الآن، خاصة إذا تلاشت صورة نوح.

سأحرق مشاعر الخوف والتردد من الكتابة، ولا يهّم الأخطاء النحوية والإملائية. لم أكن أعلم أن حولنا فوضى، وتوجد حرب بين العراق وإيران، حرب فيها دم وموت وخراب وتدمير لمدن.

بالصدفة، في المكتبة، وأنا أشتري دفترًا للكتابة، وجدت كتابًا ممزّق الغلاف، باعه لي صاحب المكتبة بثمن بخس. كان كتابًا صغيرًا يختصر رواية فرانكشتاين للكاتبة البريطانية ماري شيلي، كتاب رعب. شدّني شيء إليه منذ السطر الأول. لغة الكتاب كانت سهلة، موجّهة للفتيان، تحكي قصة عالم شاب يُدعى فيكتور فرانكشتاين، ينجح في خلق كائن حيّ من أجزاء جثث، لكنه عندما يرى مخلوقه يخاف منه ويتخلّى عنه.

يكبر الكائن وحيدًا، مرفوضًا من الجميع بسبب شكله، فيتعلم الألم ثم يتعلم الكلام. تمنى أن يجد الحب والاعتراف، لكن النبذ جعله شريرًا بالتدريج، وحوّله إلى العنف والانتقام من خالقه.

تنتهي الحكاية بمأساة للطرفين؛ فذلك العالم يدفع ثمن غروره، والمخلوق يدفع ثمن كونه مخلوقًا بلا اسم ولا مكان.

لم أفهم لماذا بدأ خيالي يربط بين الحرب العراقية الإيرانية وفرانكشتاين. تصوّرت أن كل جيش يحاول أن يصنع فرانكشتاين خاصًا به ويدفعه للقتل والتدمير. ربما لكل مدينة فرانكشتاين خاص بها خلقه أحدهم، أو أن ذلك الوحش عثر على واحدة تشبهه وأصبح لديه جيش من الأبناء حول العالم.

قال لي أحد رفاقي إن القراءة ستجلب لي الجنون. حسنًا، كتبت قصة لم تكن جيدة جدًّا، لكن حكايتها مرعبة، حكاية تفترض ظهور فرانكشتاين في شوارع مدينتنا. لم ينتبه إليه أحد، فقط أنا كنت أخاف على المدينة، لكنني خفت أكثر من أنهم لن يصدّقوني.

لم أفهم لماذا بدأت أتعاطف مع فرانكشتاين. لا أقصد هذا المخلوق الذي ابتدعته ماري شيلي، ولكن لا أدري من يوغل في فرانكشتاين؛ يمكن أن يضيف له، أو يخلق كلُّ منا فرانكشتاينه الخاص. ماذا سأطلب من فرانكشتايني الخاص بي؟ هل يمكنني توجيهه لفعل الخير وأن يساعد الناس، أن يلبس ملابس لطيفة، ويحسن مظهره، ويلعب مع الأطفال؟ خوفي أن البعض قد يسخر منه، ويعلم الصبية والفتيان الأشقياء أذيته والسخرية منه.

نعم، شاهدت لأكثر من مرة أمثال هؤلاء الأشقياء يرمون رجلًا مجنونًا مسكينًا بالحجارة، لأن المجنون مسكين وطيب، فهو عرضة للسخرية والقذف بالحجارة، وقليل من الكبار من يعترضون على هذا التصرف. شاهدت أيضًا مجموعة أطفال مزعجين قاموا بوضع إصبع متفجّر من الألعاب النارية، وضعوه في مؤخرة حمار عجوز متشرّد وفجّروه. لا بدّ أنه يتألم، مسكين هذا الحمار، يتجول في شوارع المدينة كلّها، ويجد الأذى، ولم يرأف لحاله أحد، ولم يقم أحد بمعالجة جراحه الدامية.

يقولون إن مدينة بيت الفقيه مدينة العلماء والفقهاء والحكماء والشعراء، ولكن لم أفهم لماذا كل هؤلاء الصفوة؟ نعم، يشكّون صقًا طويلًا من الرجال بملابس بيضاء

وعمائم صغيرة في حلقة دروس صحيح البخاري، ويوجد لكل جامع وحارة حلقة لدراسة الأحاديث النبوية التي جمعها البخاري، ولكني لم أفهم لماذا لم ينتبه أحد للحمار ذي المؤخرة المجروحة ويداويه.

أنا سأطلب من فرانكشتايني أن يعالج الحمار ويحمي المجنون المسكين. إنها أفعال طيبة. ربما أشعر أنني سأجعله يعمل عملاً شريراً، لا أظنني أنني فعلت شراً، لا أتدكر. أحياناً لا أعمل الواجب المدرسي وأقول للمعلم إنني فعلته، لا أدري هل الكذب الصغير شرٌّ أيضاً؟

ربما يكون لدى فرانكشتايني قصص وحكايات، حتى وإن كانت حكاية رعب، سأستمع إليها، أو سأقرأ له ما سأكتبه، فأنا أشعر أحياناً بالوحدة عندما لا أجد رفاقاً يتقاسمون معي بعض الحكايات.

الفصل السادس

عاد إلى ذهني سؤال: من تكون الهلوانة؟

بعض الدعوات عادت لتنشيط القول بأن الهلوانة ليست امرأة حقيقية؛ يقولون إنها جنية، والبعض يقول إنها امرأة شريفة وأثمت بشيء شرير فرمت بنفسها في البئر، ورأى رجل صالح براءتها وأهداها حلوى، ومنذ ذلك اليوم تعود الناس زيارتها. كأن الهلوانة فكرة عن الخير والتضحية، ولذلك تدور عنها مئة حكاية وحكاية. أحد الذين يقولون إن زيارة البئر بدعة ابتكر فكرة جديدة لينقّر الناس، وقال إن الهلوانة امرأة خادمة، وأن جزءاً من الأخدام لا يصلّون، ولذلك تكون زيارتها حراماً. وهناك من يقول إنها امرأة أحبّت شاباً، وكأنهم يشبهون الهلوانة بماري أنطونيت بنت الصانع.

شعرت بالرعب أن تموت أو تنتحر ماري أنطونيت بنت الصانع، أو ترمي بجسدها الجميل في بئر أو بحر. لم أفهم من الذي يجيز قتل الناس أو ينغص حياتهم بالكلام والفضيحة، ويجعل شابة جميلة تنتحر. بعض الوجوه الجميلة، فتيات جميلات في مدينتنا أو ممثلات في التلفزيون، يتمنّين أن يبقين جميلات إلى الأبد، خاصة غيوم وماري أنطونيت بنت الصانع.

في ذلك اليوم الذي حاولت فيه مجموعة شباب اكتشاف سرّ الهلوانة، سقط أحدهم، وظلّوا طوال يوم وليلة يحاولون إخراجه، وتمكّنوا فعلاً من إخراجه، لكن يُقال إنه فقد عقله؛ ربما ارتطم رأسه بحجر، وربما رأى هناك أهواً مفزعة.

ثم في الليل هطل مطر غزير جداً، لم تعرف المدينة مطراً بهذه الغزارة. المطر حكايات كثيرة عندما يهطل في النهار، أمّا في الليل فنشعر بالبرد وبعض الخوف، ولا نسمع حكايات لطيفة.

هدأت زوبعة البحث عن أصل الهلوانة، وبقي بعض الناس مخلصين لها، ويقولون إن هناك شيئاً من الله، كأنه هواء أو نسيم يخرج لحظة يكون المرء يحمل شيئاً حلواً للهلوانة، ويشعر الناس بسعادة بعد رمي الهدية في البئر، ولا يسألون من سيأكلها، لكن أغلبيهم يشعرون بيقين وصول الهدية إلى الهلوانة.

حقيقةً، أنا لم أجرب هذا الشعور. في كل مرة تكلفني أُمي بتوزيع حلوى للأطفال المساكين حول البئر، وأشعر بأنني مهم، وبأنني أفعل شيئاً مفيداً، وأقدم بعض الفرح لهؤلاء المساكين. تأملت وجوههم أكثر من مرة وهم يشاهدون كرم بعض الناس للهلوانة وبخلهم على البشر. كأنني لم أجد نظرات حقد أو حسد أو غيرة، وسمعت أحد الأطفال يقول: الله يرزق الهلوانة ويرزقنا بفضلها وبركتها. كأن هناك معادلة أو اتفاقية بين هؤلاء والله والهلوانة. الله يقسم الرزق كما يشاء، وليس بحسبة قسمة متساوية؛ قد يعطي شخصاً رزقاً واسعاً ومالاً كثيراً حتى وإن كان لا يستحقه، وقد تأتي بعض الأرزاق صدفة.

لم أفهم سياسة ورياضية الله، لكنني سمعت في حلقة دروس البخاري أن الله يعطي الدنيا حتى لمن لا يستحق، ويختبر المؤمن بالعسر والفقر والمرض والفقد. الدنيا عسر، والآخرة يسر، والدنيا دار فناء.

كلام كثير يصعب فهم عدل الله بالنسبة لشخص في هذه السن، عشر سنوات تقريباً. لديّ أشياء لست مقتنعاً بها، أو لا أفهمها تماماً، أو لي رأي فيها. إذا أحبّ الله أن يسمعه سأقول له بصراحة: أنا لا أحب الفقر، ولا أفهم لماذا تدع بعض الناس يتضورون جوعاً أو يموتون أبرياء في حروب كما في العراق وإيران، وسمعت بوجود حروب ومجاعات في أفريقيا. الله كبير وقوي وحكيم، وربما قد لا يحتاج أن يسمع صوتي.

أعلم أن هذا الكلام قد يفهمه البعض خطأً، وقد يضربني معلّم مادة الدين، وقد يخبر المدير ويجعلون منها فضيحة. حدث ذلك ذات مرة، أحد التلاميذ سأل مثل هذه الأسئلة فأخذه المعلّم إلى الإدارة وقاموا بتأديبه في طابور الصباح. فهمت أن مدينتنا فيها مئة حلقة للبخاري، والعلماء يناقشون فتاوى غريبة وافتراضية، مثل القبلة على سطح القمر، وكيف تكون مدة الصيام لو كان واحد يعيش على سطح القمر ويختلف الزمن والتوقيت عن توقيتنا، لكن طفلاً يريد أن يعرف فلسفة الله في العدل وتوزيع الرزق والسعادة وتخفيف الألم والمرض، فهذا قد يقوده إلى مصيبة، وربما طرد من المدرسة.

الفصل السابع

ذات يوم حدث شيء غريب. جاء الحمار الجريح قرب معصرتنا. كانت ظهيرة حارقة، رأيته يلهث وعيناه تدمعان. أسرعته وجلبت له بعض الماء. رأي أحد العمال، وفوجئت به ينتفض غاضبًا، وأخذ عصًا وأبرح الحمار ضربًا، وأرغمه أن يغادر، ثم نهزني وقال:

أنت ستجعله يتعود ويأتي كل يوم برائحته النتنة المقرفة، الذباب والأوساخ على مؤخرته كلها مرض، وسوف يُمرض الجمال.
قلت له: مسكين.

قاطعي: ما في واحد مسكين.

قاطعه أحد زبائننا، يُسمّى الدهيلية، وهو رجل يتشبه بالنساء، وقال:

والله الولد هذا قلبه رحيم، أنتم الرجال قلوبكم من حجر.

تحدّث الدهيلية عن الرحمة، وقال إن هذا الحمار عمل مع صاحبه سنوات طويلة، وربما خدم المدينة كلّها، لكننا جميعًا قليلون رحمة وقليلون معروف، ولم نرحمه من عنف الأولاد الأبالة.

كان يوجد شخص آخر، وقد امتدح ودعم رأي الدهيلية، وقال:

لو كان يوجد خير، كانوا رحموه، عالجوه، أو عملوا له حقنة تريحه من العذاب، فجسمه كله ربما يحترق كنار تشويه.

ردّ العامل بوقاحة، ونظر إلى الدهيلية وقال له:

لو تشتي الخير والرحمة، ادعيني عندك الليلة وأنا أوريك حاجات عمرك ما شوفتها.

قاطعته الرجل:

حاسب على كلامك، الولد يسمعنا، لا تخلوه يسمع هذا الكلام الفاحش.

وأشار لي أن أبتعد. ابتعدت قليلاً، لكن صوته لا يزال واضحاً، ودخلوا في نقاش «حاجات حق الكبار».

سمعت الدهيلية يقول، وهو يتحدث عن نفسه بصفة مؤنث، وقال إن لديها رجلاً حبيباً يهتم بها، ولا تحتاج لعامل غليظ قاسي القلب.

ضحك العامل وقال إنه سيتعلم منها الرقة.

كان حديثهم فيه كلام لم أفهمه، يضحكون فجأة أحياناً، وتصرخ الدهيلية أحياناً بميوعة. ثم جاء زبون آخر، واتسعت حلقة الحديث. ابتعدت لأن كلامهم بدأ بذيئاً.

الدهيلية شخصية عجيبة. يلبس ملابس رجال، لكن بطريقة أنثوية، ويجعل مؤخرته بارزة وجزءاً من صدره. وجهه أمرد، بلا شارب ولا لحية، وكأن صدره يشبه صدر امرأة. يتميل في مشيته ويفتخر بكونه مختلفاً. يملك مجموعة أبقار يربها ويعيش من بيع الحليب وتربية الدواب، ويقول إن لديه رجلاً حبيباً يحبه، وأحياناً يقول: زوجي. الكل يضحك عندما يقول ذلك.

بعد يومين سمعت أن أحدهم ذبح الحمار البائس وقتله. يكثر الزبائن عندما تحضر الدهيلية، ويتنوع النقاش، وقد يبدأ بحكاية أو حدث، ثم يُختم دوماً بالحديث عن الحب والليل.

قالت الدهيلية:

والله فطر قلبي، مسكين هذا الحمار، عاش يشقى ويتعب ومات ميتة الكلاب الجربانة.

ردّ أحدهم بأن الموت أحياناً يكون رحمة للحيوان أو الإنسان المعذب.

قالت الدهيلية إنها تخاف من الموت، وتريد أن يميتها ربها وهي حسنة، والناس تحبها وتترحم عليها.

تدخل العامل وتحدث بعبارات تحرش جنسي بالدهيلية. كلامه جعلها تضحك، وردت عليه بأنه ربما يومًا ما يحدث ما يطلبه، لكنها الآن مرتبطة.

صرخ بي أحدهم أن أبتعد وألا أقرب عندما تأتي الدهيلية، وهدد العامل وطلب منه أن يستحي ولا يقول كلام فسق قدام الأطفال، ثم عادوا جميعًا يتحدثون ويضحكون.

كل يوم تزيد حيرتي وأسئلتي عن أفعال الكبار وأحاديثهم، وكأن أفكارهم وأخلاقهم متضاربة، وفي كلامهم شهوانية، دائمًا يربطون حديثهم بالليل وبأجساد النساء والتمتع بها. حتى الدهيلية تقول إن الليل يعجبها، وما يحدث في الليل شيء لا يُحكى.

هي شخصية مثيرة، ويوجد مثلها خمس أو ست مشهورات؛ هم رجال لكنهم يرون أنفسهم نساء، يتحدثون عن الحب كثيرًا، وعن الليل، وعن عنف الرجال معهن.

الفصل الثامن والأخير

اقتربت نهاية العام الدراسي، قريبًا ستأتي الاختبارات، وفي العام القادم سأنتقل إلى الصف السادس، وبعدها الأول الإعدادي. أحاول أن يتحسن خطِّي وأتقن قواعد الإملاء. أَلقيت كلمة صباحية في طابور المدرسة وتحدّثت عن الربيع. كان نصف كلامي خياليًا وخارج الورقة المكتوبة، وتجاوزت الوقت المسموح لي. تعب التلاميذ من بقائهم تحت لهيب الشمس وأنا أتحدّث عن جمال الربيع والزهور وتدقّق الجداول والأنهار بعد ذوبان الثلوج. لا توجد في مدينتنا أنهار ولا جداول، وترهقنا الشمس بلهيبها الصيفي، وننتظر سقوط المطر ليُلطّف الجو ويجعل الحياة ممكنة.

ذات يوم جمعة قرّرت بعض العائلات في الحارة الذهاب إلى منطقة يختل في جنوب تهامة. يختل قرية ريفية صغيرة، ويذهب الناس إلى صاحب يختل الذي يعالج الناس من كلّ الأمراض، وخاصة الأرق والصداع القوي والأمراض المستعصية أو التي لا يفلح الأطباء هنا في علاجها. كنت ضمن قافلة ضمّت ما يقرب من عشر عائلات، وكنت منصتًا لما تقوله السيّدات لأمي عن براعة وبركات صاحب يختل، الذي يقرأ على زيت السمسم الذي يحمله الناس معهم، ثم بعد ذلك يدهنون به أجسادهم. يقولون إن أرض يختل ليست كأى أرض، وكأنني فهمت بأنها أرض بركانية تفرز شيئًا مثل الحرارة أو الأشعّة، أو يوجد شيء ما في الهواء، وهذا يمنح الشفاء.

لم أتمكّن من رؤية صاحب يختل، فأنا لا أشكو من أي مرض جسدي، ولم أخبر أحدًا بما يحدث في رأسي. عدنا من الرحلة، وشاهدت أن وجوه الذين كانوا مرهقين بدت فرحة. إنه أمل الشفاء، والأمل الذي يحصلون عليه يمنح المرضى بعض الراحة والنوم لأيام، ثم يعودون إلى يختل. بعضهم تحدّث أنه منذ شهر يذهب إلى يختل، وأن الله سوف ينظر إليه يومًا ما.

في عصر ذلك اليوم أمطرت السماء بغزارة. كان المطر لطيفًا منعشًا. خرج كل أطفال الحارة ورجالها، وحتى الفتيات، للاغتسال واللعب تحت المطر، وكذلك النساء داخل البيوت. غسل المطر الجدران والبيوت ونظّف الأُرْقَة من بعض القمامة.

المطر في النهار يحمل الحكايات والفرح، ويعيد لوجه المدينة نضارته وجماله. الرجال يتحدثون عن الليل بعد المطر، والتشابك مع أجساد نسائهم، وأن الليلة ستكون مميزة.

خرجت بعد المطر مع بعض الرفاق نتابع السيل الذي أحدثه المطر، وتدقق الماء كنهير صغير إلى خارج المدينة. قد يحدث بعض الجروف والحفر الصغيرة، ويأتي بعض الناس ليردموها بالقمامة. يحلم بعض الصغار بأن يجدوا شيئًا ثمينًا وهم يركضون مع السيل. ركضت مع الراكضين وفعلت كما يفعلون. لم أعر على ذهب ولا فضة، ولكن خلال عودتي لفت انتباهي وجود شيء يشبه الكتاب. جرفه السيل، لا أدري من أي بيت. لم ينتبه إليه أحد. التقطته وفوجئت أنه ما يزال بحالة جيدة، ثم وجدت بجانبه دفترًا.

بقيت متجمّدًا. الدفتر يشبه دفثري الذي اشتريته وبدأت أكتب فيه خواطر، وكتبت فيه قصة عن الهلوانة. تصفّحته، كان مبللًا ومُحَيّت الكتابة. إنه يشبه تمامًا. عدت أتفحص الكتاب، والمفاجأة أنه كتاب فرانكشتاين، سليم تمامًا، لم تُطَمَس كلماته ولم تتمزق أوراقه.

میکرو باص صنعاني

في هذه النوفيلة القصيرة يأخذنا السرد في رحلة تبدو بسيطة في ظاهرها: تنقل داخل باصات صنعاء الصغيرة، من شارع إلى آخر، ومن مشهد عابر إلى حكاية غير متوقعة. غير أن هذه الرحلة اليومية تتحول تدريجيًا إلى مساحة تأمل واسعة في المدينة، والناس، والزمن، وما يعلّق في الذاكرة بين الصعود والنزول.

النص يرصد حركة ذهاب وإياب داخل فضاء محدود، لكن هذا الفضاء سرعان ما يتسع ليشمل أسئلة أكبر: عن العيش في مدينة مثقلة بالتاريخ والقلق، عن السلطة والهامش، عن الفن والدين، عن الحلم حين يضيق الواقع، وعن البشر وهم يتجادلون، يضحكون، يغنون، ثم يمضون في طريقهم كأن شيئًا لم يحدث. الشخصيات تظهر وتختفي، ليس لكونهم أبطالًا تقليديين، بل كأصوات عابرة تترك أثرًا خفيفًا، أو جملة، أو نظرة، قبل أن تختفي في الزحام.

ما يميز هذا العمل هو نبرته الهادئة والناعمة. السرد لا يصرخ ولا يشرح، الأكثر أهمية أنه يترك المشاهد تتراكم، ويمنح القارئ فرصة الاكتشاف. اللغة مرنة، تتحرك بين الفصحى والمحكية بسلاسة، دون استعراض أو افتعال، وكأنها جزء طبيعي من نبض المكان. الكوميديا تظهر أحيانًا، وكذلك التوتر، والخوف، والحنين، لكن كل ذلك يمرّ بخفة محسوبة.

هذه نوفيلة بقلم مخرج سينمائي يوظف حسّه البصري وتقنيات السينما بهدوء شديد. المشاهد تُبنى كأنها لقطات، الانتقالات محسوبة، والإيقاع يتغير دون أن يُعلن عن نفسه. السينما هنا ليست زينة شكلية، هي عنصر مندمج في النسيج العام للنص، في بناء الشخصيات، وفي التعامل مع المكان والزمن.

عمل يدعو إلى القراءة إلى تلمس تجربة إنسانية، رحلة قصيرة في المسافة، لكن الكاتب حاول أن تكون عميقة وتفتح باب التأمل دون أن تغلقه.

تقديم

أعود إلى اليمن كما أعود دائماً في كتابتي.

لا أستطيع الهروب منها، ولا أبحث عن ذلك. تعود معي صنعاء والحديدة وبيت الفقيه، ويعود الطريق بين صنعاء والحديدة، بما فيه من تعبٍ، ومناظر تتبدل ببطء، وحكايات لا تكتمل. تعود الشوارع، والباصات، والأصوات التي تملأ الفراغ، والوجوه التي تمرّ سريعاً لكنها تترك أثراً عميقاً. اليمن تستحق أن تُكتب من الداخل، لا من الخارج؛ من الحركة اليومية، من التفاصيل التي تبدو صغيرة لكنها تختزن تاريخاً كاملاً من الإنسانية ومحبة الحياة.

هذا النص، عملي الروائي الثامن والعشرين، هو عودة أخرى، لكنه ليس عودة حنين فقط، بل عودة مساءلة. عودة إلى مشهد ثقافي ومسرحي عاش طويلاً بين الهامش والضوء الخافت. في قلب هذه العودة تقف شخصية يمنية أعتبرها ذاكرة حيّة للمسرح اليمني: عبدالله مسعد العمري. لم يكن مجرد ممثل، بل كان مسرحاً يمشي ويتجوّل. في أي مكان يحلّ فيه كان يخلق فضاءً حيّاً، يصعب تعريفه لكنه يُحسّ فوراً. الباص عنده خشبة، والشارع مشهد، والجلوس العابر حكاية قابلة للتأويل.

لا أظن أن أحداً كتب عن العمري بما يأتيق بتجربته، ولا حتى رثاء كما ينبغي. ومع ذلك، كان جزء من بيته مفتوحاً دائماً للآخرين: فنانيين وكتّاب يأتون من الحديدة وتعز وعدن، يأكلون ويطبخون أياماً أو أشهر، من دون أن يُسألوا عن أجر أو مساهمة. كان يفعل ذلك وهو مجرد موظف في وزارة الثقافة والتوجيه المعنوي والسياسي، لا يملك سلطة ولا امتيازاً. من خلاله تعلّمت فلسفة الأفعال الصغيرة: كيف يمكن لكرم بسيط أن يكون موقفاً، وكيف تصنع التفاصيل غير المرئية تاريخاً موازياً للتاريخ الرسمي.

سمعت منه حكايات شعراء وفنانين، وكيف وُلدت بعض الأغاني والقصائد، وكيف عاشت ثم اختفت. كنت محظوظًا بشراكتي معه، وبالعامل المسرحي الذي أنجزناه معًا عام 1998، حين عُرضت مسرحيتي الرصيف في حفل تأبين الأديب عمر الجاوي. كنت كاتب النص ومخرجه، وكان العمري بطل العرض، وشارك معنا عدد قليل جدًا من غير المحترفين. تجربة متواضعة في ظاهرها، لكنها كانت بالنسبة لي درسًا عميقًا في معنى أن يكون المسرح فعلًا جماعيًا، لا استعراضًا.

ميكروباس صنعاني أعادني إلى اليمن بهذا المعنى. أعادني إلى سماع أغاني أحمد قاسم، وكلمات لطفي جعفر أمان، وقصائد إبراهيم علي صادق. أعادني إلى إدراك حقيقة بسيطة ومؤلمة: أينما يحضر عبدالله مسعد العمري، يحضر اليمن كله، شماله وجنوبه. وهذه ميزة نادرة في شخصيات ثقافية قليلة لم تُقسّم نفسها على الجغرافيا أو السياسة، بل حملت الوطن ككلٍ هشٍّ ومركّب.

كان بوسع العمري، مثل كثيرين من جيله، أن يختار طريقًا آخر: التجارة، أو منصبًا إداريًا، أو موقعًا مريحًا في مؤسسة سيادية أو معسكر. لكنه اختار أن يظل فنانًا. كان يستلف أحيانًا أجرة الباص ليذهب للتوقيع في التوجيه المعنوي ثم وزارة الثقافة. نعم، كان له راتبان ووظيفتان بسيطتان، لكن غيره من أبناء جيله كان لبعضهم أربع وظائف ورواتب وبدلات وامتيازات، ومع ذلك لم يكونوا يعينون محتاجًا. كثيرون كتبوا ونشروا في التاريخ والوطنية والثورة، وقدموا أنفسهم بوصفهم ثوارًا وبناءة وطن، ثم ماتوا وتركوا قصورًا وأموالًا وأبناءً مثبتين في أعلى الوظائف.

لكن العم والأستاذ عبدالله مسعد العمري مات بسيطًا، بلا ثروة، ولم يثبت أبنائه في ظهر الدولة. لم تذكره كتب المسرح، ولا السرديات الوطنية، ولا أولئك الذين أقاموا في بيته وأكلوا من طعامه واستدانوا منه ثمن أجرة الباص.

ومعه مات شعراء ومبدعون مثل إبراهيم علي صادق، ولطفي جعفر أمان، وعمر الجاوي، وقلة قليلة من المبدعات والمبدعين الذين عاشوا كرماء وشرفاء، وغادروا بصمت، بينما ظل جزء كبير من تاريخنا الثقافي يُكتب بأيدي غير شريفة، مزوّراً، ومبالغاً فيه.

هذا العمل وُلد وتدفّق، وقادني إليه شيء يشبه النداء. أشعر أن روح مبدع كريم وإنساني أملت بعض عباراته. لذلك أقدمه لا بوصفه شهادة مكتملة؛ ولهذا فضّلت أن يكون قصيراً. في الحقيقة اعتبره عتبة: محاولة إنصات، وتحية متأخرة، واعتراحاً بأن ما لم يُكتب بعد في تاريخنا الثقافي ربما هو الأصدق.

حميد عقبي

الفصل الأول

سأظل في صنعاء لأسبوع كامل، ونشهد غدًا فيها ولادة أول يوم في عام 2000، السنة الجديدة، في القرن الجديد، القرن الواحد والعشرين. أرى صنعاء من خلال نافذة هذا الميكروباس الصنعاني، بجانب العم عبد الله مسعد، الذي يحوّل أي باص نركبه إلى خشبة مسرح، إلى منتدى ثقافي أو مختبر حكاوي. مشوارنا سوف يستغرق ربع ساعة، على ما أظن. أستغرب أنه لم يتكلم إلى الآن، فقط يبتسم وينظر إلى سقف الباص، والذي لا يبدو بحالة جيدة.

تأملته وفهمت أنه سينطلق من هذه النقطة، سيبدأ يتحدث. البداية مهمة في كل نص، أقصد في كل باص.

هتف إلى السائق وقال: يا سواق، دلحين باصك صار قديم، السقف هيبط علينا، تقول كم مخبي من مال في هذا السقف؟

أصيب السائق بصدمة، التفت إليه وقال: ما هو يا عم، قدها لاصية عندك، وأحنا بسم الله أول مشوار، طب من تقع زلط هنيئًا لك؟

نظر العم عبد الله إليّ مبتسمًا، ونظر إلى سيدة تغطي وجهها بلثام وتحمل دجاجة، قال لها: سمعتي يا أختي؟ أنت شاهدة، لو عملنا حادثة بعد شوي السقف سيمطر ورق أخضر، دولارات من حق بيل كلينتون.

قاطعته السيدة غاضبة: اتقوا الله فينا، فين ما ذهبنا قالوا الدولار، الدولار سار، الدولار طلع، الدولار، الدولار. ما نشتي حادثة ولا دولار ولا حتى هذا الباص. يوم دبور، نزلني يا ولدي هنا، نخلي لكم الحادثة والدولار.

يبدأ السائق في تهدئة السرعة والبحث عن مكان للتوقف، وهو يشكو إلى الله ضيق الطريق ويصرخ: يا عم، زعلت العجوز وحنبتني، فين أوقف؟ الشوارع صارت أضيق من قلب بعوضة، يقولوا قلبها صغير، وهذه شوارع صنعاء تضيق وتصغر.

تصرخ السيدة وهي تشتم السائق أنه قليل ذوق لأنه قال إنها عجوز، وتثني على العم عبد الله الذي وصفها بالأخت. انفجر من في الباص ضاحكين. استمرت السيدة في غضبها، مما دفع السائق أن يتوقف في مكان ممنوع التوقف فيه. خرجت السيدة ورفضت دفع الأجرة. قال العم للسائق إنها على حسابنا.

تفاجأنا بشرطي المرور يقيد رقم لوحة الباص. ضرب السائق على رأسه وبدأ يولول أن النحس بسبب زوجته، فهي تشعل البيت بالمشاكل وطلباتها لا تنتهي.

خرج العم عبد الله وتحدث مع الشرطي، ثم رأيناه يقبل رأس الشرطي، فهمنا أنه تمكن من مسح المخالفة.

عاد عم عبد الله يضحك ويهمس للسائق: تحرّك، لو جاء الشرطي وفتّش الباص سيجد الكنز في سقف الباص.

رأينا أن السائق أخذ الموضوع بشكل جاد، وقال: لو تكون رجل مبروك وكلامك صح، اشتريت الباص قبل يومين وهذا أول مشوار. خلاص، أنتم أنزلوا قريب، وأنا أرجع البيت نشوف حكاية السقف.

انفجر البعض بالضحك، وبقي البعض ينظرون إلى سقف الباص، وعيونهم تتمنى شيئاً، حلمًا ما.

الفصل الثاني

أجبرنا السائق الأول على النزول، وذهب ربما ليرى ما بداخل سقف باصه. توقف باص آخر، ظهر سائقه كأنه شاب صغير. مع صعودنا اتضح أنه صبي صغير، ربما يكون عمره ثلاثة عشر أو أربعة عشر عامًا. الغريب أن الشخص الذي يجلس في الكرسي الأمامي ضابط مرور وبدرجة رائد. بقية الركاب كأنهم غارقون في عالم آخر.

سمعنا الضابط، وكأنه ينظر إلى باص آخر، ويقول: انظروا، وكأن حياة الناس لعبة. هذا صاحب الباص الأصفر عنده مرآة الشمال مشروخة. نزلني قدامه، والله نعطيته مخالفة.

سرعان ما توقف الباص لينزل الضابط، وقبل أن ينزل قال وهو يوصي الصبي السائق: اطلب الله، وإن أوقفك شرطي أو ضابط قل له أنا عمي الأفندم حاكم، حاسب على نفسك يا ابن أخي، توكل على الله.

بقينا جميعًا صامتين جامدين، نراقب الضابط الحاكم يكتب مخالفة ذلك الباص، ورغم مرور باصنا، كأن المشهد يتواصل في عقلنا الباطن. ضحك العم عبد الله وقال: ضابط مجتهد، حريص على النظام والقانون.

رد الصبي وقال: الأفندم حاكم ماسك المرور ويستحق يقع مدير المرور، لا يجامل. رد أحد الركاب، وهو يمسك بكتاب قانوني، كأن عنوانه دستور الجمهورية اليمنية – أرقى دساتير العالم، وقال بلهجة تهكمية: نعم، باين أنه ما يجامل، ولا تأخذه في الله والحق والعدل والمساواة لومة لائم.

أكمل العم عبد الله: هي ألفية جديدة يعيشها اليمن، ويقوي مشروع المواطنة.

رد الراكب وهو يمسك بالكتاب: تدرّون، أساتذة الجامعة حقّنا، والصحفيين، وحتى المعارضين، وباحثين من بلدان بالخارج، درسوا دستور الجمهورية حقّنا، نقاشات وبحث وعملوا بيان إنه الرابع أو الخامس دستور في العالم يعطي المساواة والعدل لكل المواطنين.

راكب آخر، كأنه بدأ يتأمل وجه السائق الصبي، ظل صامتًا، ثم تلعثم وقال: هذا السواق حقّنا من أول، أم أنه صغر بالعمر؟ من هو جعله يصغر؟

طلب الراكب الذي بيده الكتاب أن ينزل، وظل يضحك: نحن الشعب الوحيد نركب باص نقبل بسائق، أو بمحافظ، أو وزير صبي، وبعدين نقول ما انتبهناش، ويقولك دستور نقي ومثالي. شعب أحمد يحكمه أبو أحمد، ومن بعده سيحكمه أحمد، وإلا شي يقلبونها فتنة.

أوقف الصبي الباص وطرد الراكب الذي تحدث بالسياسة، وقال: ما بيش سياسة بالباس حقي، والأفضل كلّم تسكتوا، وأنت أول واحد—وأشار إلى العم عبد الله—نعم أنت، كأني شوفتك بتمثيلية. هو أنت ممثل؟ ما بيش وممنوع تمثيل ولا مسرحية بالباس حقي، وإلا نزلت سلّمكم لسيارة الأمن، الذين يحفظون النظام والقانون.

شعرنا جميعًا أن نبرته جادّة وحادّة.

أدار الراديو ورفع صوت أوبريت «خيّلت بارق لمع:»

خيّلت بارق لمع

من فوق صنعاء

حنّ رعداه وسيله

يروى ضما أرض اليمن

ونجم وحدتنا سطع

وشق قلب الظلم

ألقى بليله.

قال السائق الصبي: هذا أوبريت جديد، حيعملوه في مايو، حيحضروا قادة وزعماء
الدول العربية والعالم. عاشت بلادي. في مايو هذا العام 2000 حيكون حفل دولي.

الفصل الثالث

صرخ السائق الصبي فينا وقام بطردنا من باصه، وطلب منا ألا نوقفه أو نركب معه نهائياً. كان متبجحاً، وزعم أن عمره اثنا عشر عاماً، وأنه في الصف الثاني إعدادي، وأنه يقود هذا الباص، وهو كذلك عسكري ويستلم راتباً. بقيت صامتاً، وأحاول السيطرة على البرد الذي يمسك بقدمي وبدأ يتسلل إلى ساقي. العم عبد الله ظل يتحرك، يلوح لباص آخر، كأنه لا يشعر بالبرد، رغم أنه يلبس صندلاً بلاستيكيًا عاديًا. يضحك ويقول لي: اصمد يا صاحب تهامة، حنصل سوف نصل، أكون أو لا أكون. تدري، والله زمان مثلت شخصية هاملت، كان في بداية الثمانينات.

توقف باص، ركبنا، ولم يكن أحد في الباص. كان السائق رجلاً سميناً وبشوشاً. أكمل العم عبد الله يسرد توقّعات ذلك الجيل وحلمهم بتطوّر المسرح، ثم قدّم العم عبد الله قطعة من هاملت:

أكون... أو لا أكون.

هذا هو السؤال.

أن نموت... أو ننام منام الموت، أقصد موت النوم. يمانيون في المنفى ومنفيون في اليمن، لا النوم ولا الموت ينهي وجع القلب وما يرثه الجسد من صدمات. أي نهاية تُرجى؟ أن نموت... أن ننام... أن ننام... لعلنا نحلم.

أنت أيها السائق البشوش، أتراني أهذي؟ كنت أريد عدلاً وحباً لشعبي، فشنقوني وتركوا جسدي للغريان تنهشه دون رحمة.

فوجئنا أن السائق فرح وصقّق، وقال: مشواركم على حسابي.

قلت للعم عبد الله: كنت رائعاً، خسارة لا يوجد جمهور.

ضحك السائق وقال: وهذا واحد جمهور، معه عود، الباص سيكون مليان فنانين.

توقف لأحدهم، وكان رجلاً بزي شعبي يبدو من صنعاء القديمة. دخل بسرعة ووضع العود بجانبه، ويبدو غاضباً. تحدث يشرح سبب غضبه، وقال: الناس تنظر إليّ وتقول قبيلي صنعاني أصيل ومعه عود، ويقولوا تعرف تغني وترقص. ما هم دارين هذا عود صنعاني قديم، قيمته أغلى من الذهب، وكان يحتاج تصليح. اشتراه جدي زمان. قلنا لواحد مسؤول كبير حق وزارة المثقفين والفن اليمني، وقلنا افعل لنا دعم نصلحه. قال: لا، تتبرع به للوزارة. خبرني واحد وقال: أوبه، هذا عاصي والديه وفاسد، شيئأخذه منك ويبيعه لسفير خليجي أو أجنبي. والله طلع كلامه صحيح، عرضوا عليه مبلغ خيالي، قلنا نشوف، حيزاعفوا المبلغ.

تدخل العم عبد الله وقال: يا عم، أنت يماني أصيل، ما تبيع كنز وتراث اليمن.

ضحك الرجل وقال: أنا من سكان صنعاء القديمة، السيل والمطر سيدسقط السقف علينا، وسنة نفعل معاملة ولا يفعلوا إلا مبالغ صغيرة. نبيع العود ونشدّ عود البيت حقنا. نزلني هنا يا ابني، الله يرضى عليك.

نزل الرجل، وواصلنا طريقنا ونحن نناقش الفساد والظلم. شاهدنا عائلة من أب وأم وطفل، أشاروا إلينا، لكن السائق رفض الوقوف لهم، وقال متأففاً: أوف، هذول أخدام، خلينا نواصل مشوارنا.

تجاوزهم. كنتُ والعم تحت وقع الصدمة. صرخ العم وقال: ستوب، ما يشرفنا نركب معك. لنا ساعة نحكي عن العدل، والآن تقول أخدام.

توقف غير مبالي. نزلنا، وهو واصل طريقه، ونحن مشينا باتجاه العائلة الأخدام.

الفصل الرابع

مشينا باتجاه العائلة الأخدام. شعرنا أن الطقس يسوء وتزداد البرودة، والتي تحولت إلى صقيع رغم وجود شمس منتصف اليوم. وصلنا بالقرب منهم، وسلّم عليهم العم عبد الله، وحرّك فمه ووجهه ليُضحك الطفل. في البداية خافوا منا. ببساطة حاولنا كسب ثقتهم بالحديث عن البرد وأزمة المواصلات. بعبارات صغيرة بدأنا نبني الثقة بيننا.

توقف باص يقوده شاب يبدو أنيقًا، ببذلة وكفّته، وبجواره شابة غير منقبة، وطلبت منا أن نركب. تحرك السائق بعد أن ركبنا، وهو يتحدث إلى الشابة ويسمّيها وزيرة العدل، ويتحدث كيف أنه منذ الصباح لم يكسب مليمًا، وقال: هذه السيدة وزيرة العدل خطيبتي، في كلية العلوم السياسية، وتعمل بحثًا عن الخطاب السياسي للمواطن في الباصات، وكل ما نحمل ركاب ونوصلهم ما تقبلني آخذ الأجرة، وأنا طالب بكلية التجارة سنة أخيرة، أشتي عشرة طن ملازم، كل دكتور يعمل له منهج ويقول اشتروه، كل شيء فوضى في هذه البلد.

قاطعته الشابة تريدنا أن نطمئن، وتقول: هذا الزميل أقول له يا زميل، اشترينا الباص شراكة نص بنص، حق وعدل.

ابتسم العم عبد الله وخاطبني: ما هو يا أستاذ، خبرهم، لنا ساعة نسمع حق وعدل ويطردونا من باص إلى باص.

أكملت حديثه بحق، المرة هذه كآني في صنعاء غريبة عجيبة. نزلنا من الباص لأن السائق رفض يوقف للعائلة هذه، وقال...

قاطعني الرجل وقال: أه، يعني قال إني خادم؟ أنتم تدرون، من ذهبت أعمل بطاقة واسمي أسعد الكامل، رفض الموظف اسمي ولقبني، وعمل لي اللقب "الخادم". العدل عند ربنا. معي الولد يحتاج فحوصات، يريدوا شهادة ميلاد، من فين أعملها؟

قالت الشابة: نحن نساعدك يا عم، أين تسكن؟

رد: والله فندق صغير عند باب اليمن.

قالت المرأة: ابني أويس مسكين، لا ينام من الوجع، يمكن عنده الكلى، وقد بعنا نصف ما نملك.

ثم بدأت الشابة تسألنا عن الأحاديث والقضايا السياسية التي سمعناها أو تحدثنا بها في الباصات.

ضحك عمي عبد الله وقال: تدرون إن غالب القمش صاحي موت، قولوا له يسلم عليك عمك عبد الله مسعد. ما شاء الله عليه، تطورنا، كان يفعل لنا مجانيين، والآن يوظف بنات شابات حلوات وشبان بالكرفطة والعطر الفرنسي ونظارة تخلي وجهك مسكين.

تفاجأ السائق والشابة، وقالت: نحن ما شو أمن سياسي، ولا نتجسس على الناس، ولا نعرف من هو غالب القمش. نريد نساعد هذه العائلة، وأنا أسأل وأعمل بحثي.

بقينا أنا والعائلة صامتين. رد العم عبد الله: فقط قولوا له، لو تطور ذكاؤكم، الشعب أيضًا تطور ذكاه من كثرة التجربة. نزل هنا، وأنتم يا حباب، هذا المستشفى الجمهوري. تعالوا نشوف يوجد طبيب إنساني ويحب الفقراء، لو وجدناه سوف يساعدكم.

توقف الباص، نزلنا. شاهدنا الشجار بين الشابة وزميلها، ثم شاهدناها تلبس البرقع. ضحك عمي عبد الله، فهمنما أنهما يعملان بعدة خطط.

قالت المرأة: هل سيجبسون زوجي لأنه تكلم سياسة؟ وأنا أقول له مئة مرة ما نتدخل بالسياسة. عملنا بطاقات حق الانتخابات، وأخذها الشيخ حتى ننتخب ابنه.

الفصل الخامس

مشينا ودخلنا بوابة المستشفى، وبعد دقائق سمعنا أحدهم ينادي: يا عم عبده، عم عبد الله. ثم توقف أمامنا باص متوسط. ضحك عم عبد الله من المفاجأة، وهو يهتف: دكتور عبد الرزاق، يا أروع دكتور.

خرج من الباص الدكتور عبد الرزاق وعانق عم عبد الله، سلّم علينا، ثم طلب منا الصعود إلى الباص، وعرفنا على السائق بقوله: أقدم لكم ابني زين العابدين. هتف العم عبد الله: مرحبًا، ما شاء الله.

فهم الدكتور أن العبارة استفسارية، ثم كأنه يشرح لي بأنه رجل لم ينجب، لكنه يدعم شابًا مكافحين، طلبة في كلية الطب، واشترى لهم باصًا يعملون فيه من أجل التغلب على الحياة.

قاد الشاب السائق إلى جهة باب اليمن. حكى العم عبد الله طلبه مساعدة العائلة. أمسك الدكتور بالطفل وفحصه، ثم أخرج ورقة وقرر عمل مجموعة فحوصات، وطلب من زين العابدين أن يهتم بهم.

فوجئت العائلة بهذا الكرم. أمسك الدكتور بيد عم عبد الله، وحكى كيف أنه منذ زمن بعيد تعرّف على عم عبد الله، وكيف أنه وجد دعمه ووساطته لمنحة دراسية هو يستحقها، أُعطيت لغيره، وبفضل عم عبد الله تمكن من السفر وأصبح دكتورًا. وقال: بلادنا فيها كل شيء، لكن يوجد بصيص أمل. أنا وبعض الزملاء عملنا جمعية صغيرة نساعد بالقليل، الفساد يعم ويتوغل.

حكى القليل من مظاهر الفساد، وتحدث عن زملاء له يقاومون ويضحّون بقوت أولادهم.

نزلنا في باب اليمن. سألني عم عبد الله: ما هو، كان مشوارنا؟

قلت: نشترى قات، الآن كل شيء مغلق، فقط القات.

ضحك وقال: تعال نودّع الدكتور عبد الرزاق، وبعده نشترى قات.

ودّعنا الدكتور والعائلة، ومشينا. وصلنا إلى مكان بيع القات. هنا لم أجد محفظة النقود، ربما نسيناها في باص، أو أحدهم أخذها. ركبنا عدة باصات، لم يكن العم عبد الله يحمل المال. كنت قلقًا، فالمحفظة بها البطاقة الشخصية.

الغريب في هذا الرجل أنه يبتسم في الأولى، في أصعب الظروف. خرجنا لنشترى قاتًا من مكان قريب ونعود إلى البيت، ثم حدثت لنا هذه الدورة الدرامية. يقول لي العم عبد الله: أقسم لو سألنا الناس هنا سنجد مئة واحد مضيع محفظته وبطاقته. لا تقلق على هويتك، إما نجدها أو تعمل بدل فاقد. أنا من سنوات ما أحمل محفظة ولا بطاقة شخصية، فقط أجرة الباص ذهابًا، وأحيانًا ما يكون عندي حق العودة، لكن ستفرج. يقول المثل: العبد في التفكير والرب في التدبير.

ضحك وتذكر موقفًا له كان مع مجموعة لعرض عمل مسرحي في معسكر جزيرة نائية، تعطل بهم القارب، وظلوا يومًا وليلة إلى أن عثر عليهم صيادون وسحبوهم إلى الجزيرة. تحدث أن تلك الجزيرة كانت حدودية أيام التوترات قبل الوحدة.

بقينا نمشي، ثم إذا بنا نسمع صوتًا ينادي. إنه السائق زين العابدين. قال إن محفظتي وقعت في الباص، وإنه سوف يوصلنا.

فرحنا. اشترى لنا قاتًا، وسلّمني المحفظة. شعرت أنها ثقيلة. فتحتها، وجدت بها مبلغًا. فهم العم عبد الله ما حدث، وأشار بقوله: الدكتور عبد الرزاق إنسان عظيم، مناضل وأصيل.

الفصل السادس

قررنا العودة إلى بيت العم عبد الله في منطقة عصر. في لحظة واحدة، ونحن نمشي باتجاه الباصات، رأيت رحلتنا وكيف وصلنا إلى هنا في شريط قصير، وكأنه نصف فيلم. قلت في نفسي: لم يكتمل الفيلم، ولكن أتمنى أن يكون الجزء الثاني ممتعاً ومرحاً بدل ما حدث من أحداث مليئة بالتوتر.

صعدنا أحد الباصات، ويبدو قديماً متهاكاً، كأغلب باصات صنعاء. امتلأ الباص، وحشرنا الدّلال كالدجاج، وهو يصلي على النبي ويردد: البركة والوسع في القلوب .

امتلأ الباص ولم يأت السائق، وبدأ الدلال يصرخ: يا أفندم علي، الحق ركابك، الصقيع حيجمّدهم، صلّينا على النبي، صلّوا عليه.

جاء السائق، ويبدو وجهه مقبوضاً. رأيت عمي عبد الله محشوراً بين اثنين ضخمي الجثة، كأنهم يحاصرونه عمداً.

تحرك السائق، وبعد مسافة قصيرة استوقفنا صبي من الباعة المتجولين، فتوقف السائق وهو يردد: الوسع بالقلوب، من وسّع لأخوه وسّع الله عليه في القبر.

صعد الصبي، ابتسم له عم عبد الله. قال الصبي: هذا الوجه أعرفه، أنت ممثل حق إعلان تحديد النسل.

تحدث العم عبد الله وقال: هذه رسالة إلى الكبار، حتى يخففوا الإنجاب، وبعد نركب الباصات وما نقع محشورين مثل الدجاج.

قال الصبي: يا عم الفنان، أن تولد في اليمن تتعلم حكاية الزمن.

رد أحدهم: يقولون من لم يرّه الزمن تربيّه اليمن.

قاطعہ آخر: أما بلادنا حالیة وطیبة بس المسؤولين حقنا كل واحد مثل طاهش الحوبان، یسرقوا كل شیء.

قال الصبی: الذی یولد فی الیمن ولا أحد یدری عنه، وما فی حقوق الطفل.

هنا سعل السائق وهتف: ما هو یا ولد، قلنا نرحمك من الصقیع، قلبتها لنا جمہوریة ومجلس برلمان. اهجع، وأنت یا ممثل، اهجع من تحدید النسل.

تدخل أحد الركاب وقال: الله یقول: ولا تقتلوا النفس الی حرّم الله — صدق الله العظیم — ما هو إلا النصاری یفعلوا هذه الدعوات.

صرخ السائق: استحووا علی شرفكم، عندنا حریم وراء.

هتفت إحدى السیدات وقالت: مالکم تهاوشوا وتتعارکوا یا أولادی؟ نحن ثلاث جدّات، خلاص، الله یجلب حسن الختام. ولكن والله كل شیء بقی زحمة. زمان كان جو صنعاء كأنك بالجنة، البساتین من حولها. أنتو ما عشتّم شیء اسمه صنعاء الیمن.

انتشل عم عبد الله نفسه وقال: والله صدقت، وما كان زمان واحد یخنق صاحبه.

هنا فجأة شعر السائق أن الفرامل ما تعمل، وصرخ: الفرامل قرحت، ما فی فرامل، الله یستر.

صرخ أحدهم وقال: وأنا قلت نحن فی ید أمینة مع الأفندم علی. یا فندم یا قاید، کیف تقودها والفرامل قرحت؟

یزعق شخص وقال: والذی منعکم السیاسة ملعونها، كان عندی جار لعب بلسانه، قطعوا له لسانه ورجعوه نصه حی ونصه میت. والذی منعکم نصدم ونتعالج، ولا عمکم غالب القمش.

بقيت أعيننا معلقة بالسائق. تصاعد التوتر، كأننا في فيلم أكشن. دقيقتين، بعضنا عاش الرعب، والبعض لم يعبر عن شعوره، لكن الوجوه تتابع السائق. توقف الباص لوحده خارج الخط.

طلب منا أن ننزل جميعًا. قال أحدهم معلقًا: ما لنا نصيب، تظل أنت قايدنا حق الباص، أما الأفندم الكبير فهو قايد الوطن ويعرف يفرمل أحسن منك ومن أحسن سواق باص.

رد الصبي: والله كلهم ما يعرفوا لا قيادة ولا فرملة، ما يعرفوا إلا يفرموا، فرموا الشعب.

ضربه شخص ضربة قوية على رأسه وصرخ فيه: عيش طفولتك، ما لك والسياسة. خليك واثق بقيادتك والمستقبل. والذي منعكم، البرد طير الغداء وفرم العظم، كيف نخزن قاتنا وإحنا جوعانين.

الفصل السابع

بقينا لأكثر من ساعة متوقفين نطلب المساعدة، لكن لم يتوقف أو يقترب أي باص. كنا على رصيف صغير قرب جهة البنك المركزي. حاول السائق أن يفهم سبب المشكلة، ولم يكن أحدٌ منا يفهم في الميكانيكا. الجو يزداد بردًا. ظل العم عبد الله يتأمل ذلك الصبي ويبتسم له، وكأنه يشجعه أن يغني، وفعلاً بدأ الصبي يصفق ويغني أغنية غريبة، ويردد:

أنا فنان من باريس

أنا فنان من باريس وبارع في العزف

أعزفُ على الطبل

تروم تروم تروم تروم

دووم دم دم دووم.

صرخ فيه أحدهم بعنف: ما هو هذا الدوم دووم والتروم تروم؟ بطلوا لكم الخييلة، قع رجال. ما هو فنان، الفن عفن. قل إنك حتقع رجال، تكون ضابط أو مدير حسابات أو أمين صندوق، هذه هي المهن التي تعيش، مش مهنة فنان، حتشبع يوم وتجوع أسبوع.

هنا تقدم عم عبد الله وفتح نقاشًا عن مهنة الفن في اليمن. كل الآراء اتفقت بأنه لا يوجد مستقبل للفن في اليمن، وأن أفضل الوظائف هي التي أشار إليها الرجل. حاول عم عبد الله يذكرهم بفنانين متميزين، لكن أحدهم قال: حتى لو كان واحد فنان قوي، لكن من يموت الناس لا تترحم عليه. حياة هؤلاء الفنانين يفعلوا كل شيء، والله ما يقبل صلاتهم ولا صيامهم. مش هم حق جنة، يدخلوا النار.

قاطعہ عی عبد اللہ وسأله: كيف عرفت أنهم في جهنم؟

تلثم الرجل وقال إن داعية كبير عمل لهم محاضرة، وعدد أكثر من عشرين فنائاً وفنانة، وقال إنهم يتقلبون في نار جهنم، ويشربون الصديد الذي يخرج من قروح ودما مل أجسادهم.

ظهر أن الجميع مصدقين لهذه الرواية.

فجأة اقتربت دورية عسكرية، وطلبوا منا أن نغادر هذا الرصيف، وأن ندفع الباص إلى رصيف أبعد من منطقة البنك المركزي.

زادت برودة الجو، لكننا مجبرون على دفع الباص. كان يبدو ثقیلاً جداً، كأنه محمل بأطنان من الحديد الصلب. صرخ أحدهم يسأل السائق: ما هو هذا يا خبير؟ كأننا نزحج جبل أحد. ما هو هذا الثقل؟

رد السائق: ما هو إلا باص صغير، لكن أنتم محملين بالهموم وزاد الصقيع. قد كان يسير كأنه سفينة مدرعة، لو يكونوا طقوه عين. عين الحسود تفلق الحجر. ليت واحنا شعب، وكل واحد في حاله، ولا ينظر أحد في وجه الثاني. لكننا شعب يحب الثثرة والتدخل في شؤون الآخرين. الواحد ما يقع يعيش مستقل في هذا البلد، بلد ملطامة وهدره.

الفصل الثامن

وصلنا إلى رصيف صغير يبدو أنه تابع لمقبرة خزيمة الشهيرة. تفرّق الركاب، كأنهم خافوا من المقبرة. بقيت أنا وعمي عبد الله، فقد أمسك السائق بيد العم عبد الله وأخبره أنه قبل سنوات حضر دورة تدريبية في مسرح المركز الثقافي، واعترف السائق أنه يحب المسرح ويخفي هذا الحب. ضحك ثم تنهد، تلعنم ثم تحدث بطلاقة وقال: أحلى ليلة عندي ليلة الخميس، يقع فيها عشاء ديك تهامي كبير، وأرجع أجد زوجتي تالطف العيال حتى يناموا بدري. تقفز لي ابنتي زيتونة، وهي ما شاء الله ذكية، تحب الرسم ودائمًا ترسم جبالًا خضراء وشجر زيتون، وهذا سبب جعل المدرسة ونحن نسّمها زيتونة. الضحك والحكايات، ونقضي ليلة من حق الفردوس. لكن هذا الباص خرب أبو اليوم، واللييلة ما عاد يقع ليلة خميس. ظهري قدّه مشروخ ومقسوم نصّين.

أشرتُ للعم عبد الله أن نترك المكان ونبحث عن باص أو تاكسي. كل دقيقة تنخفض درجة الحرارة. رأيت عم عبد الله يخرج من جيبه كومة أوراق ويعطيها السائق. قال له: هذه نسخة مصوّرة من مسرحية للكاتب الأمريكي الأسود لانغستون هيوز. وقال له: من توصل للبيت اقرأ هذا النص للكاتب لانغستون هيوز، فيه عن الغربة والهوية. الغربة مش هي شرط ينفوك خارج الوطن، إحنا قدنا يمانيين منفيين في اليمن. شجّع ابنتك زيتونة، وأهم شيء تحرّر الرأس، ويقع ليلة خميس حالية.

أخذ السائق الأوراق، كأنه شعر بقيمة النص. لم أكن أعرف أن هيوز له نصوص مسرحية، ولم أكن أعرفه كثيرًا.

تحدث عم عبد الله عنه وقال إنه قبل سنة كان في رحلة مع رجل أمريكي أسود، كان يتعلم العربية، وحدثه عن هيوز وعن شعراء هارلم وحركات التحرر.

هنا اقترب رجل كان أشعث أغبر، وبشارب كثيف ولحية غير محلوقة، كان يصرخ ويردد: الحرية مش هي في الأوراق ولا الدستور ولا الكتب حق الجامعة. قلنا الحرية إيمان، والإيمان في القلوب، والقلوب قد ذبحوها ورموها في خزيمة. كلهم في خزيمة. ما هو الخبر؟ قدّه خزيمة ضابحة، ما تقدرش تتحمل قلوب مؤمنة وقلوب منافقة وقلوب جائعة وخائفة. الجوع والبرد. مسكين من ضيّع دفاه في ليلة باردة، ومسكين من ضيّع خميسه، ومسكين من ضيّع حبيبه وونيسه.

ثم قال هذا الرجل، وضرب الباص بقدمه، وطلب من السائق أن يشغل الباص. تحدثنا إليه وأخبرناه أن الباص معطل، فكرر طلبه.

ابتسم السائق وصعد لتشغيل الباص، وكانت مفاجأة لنا جميعاً. اشتغل الباص بسهولة. صرخ السائق فرحاً يطلب منا أن نصعد. صعدنا، لكن الرجل غريب الأطوار رفض الصعود، وظل يهذي ويقول: مش هو طريقي. طريقي نبحت لأصحاب خزيمة عن حل. الحرية مش هي في الكرايس والدفاتر ولا في الراديو ولا التلفزيون، كلهم يكذبوا علينا. الذين فوق يكذبوا على الذين تحت، والذين تحت يكذبوا على الذين تحت تحت، وهكذا ضيّعنا الدفاء، وخزيمة باردة. ما بردها إلا صقيع من حق سيبيريا. ارحلوا يا أولادي من هنا، هذه ساعة الذئب والكلب، هي لحظة لا هي ليل ولا نهار، تفتح أبواباً مخفية. ارحلوا من هنا.

كلامه أثار خوفنا. تحرك السائق مسرعاً، كأن كثيراً من الضباب يهطل فجأة، وكأننا في نفق هذه الساعة، أو لحظة الذئب والكلب.

الفصل التاسع

انطلقنا في هذا العالم المختلف تمامًا. تساقط شيء كأنه ثلج ناعم. نظرنا إلى بعضنا بعضًا كأننا نسأل أنفسنا عن زماننا ومكاننا. خَفَّفَ السائق السرعة، وقال: جاء في ذهني سؤال غريب، هل صحيح أن الأسماك ما تملك جفون؟ معنى ذلك أنها ما تبكي، يعني ما تحزن. ابنتي زيتونة مرة رسمت سمكة بلون زيتوني، وخبرتني أن السمك ما عنده جفون، وبعدها رسمت لهم جفون وقالت: أنا أرسم لهم جفون حتى يغمضوا أعينهم ويكون لهم حلم.

بقيت صامتًا، بينما العم عبد الله بدأ يفكِّك لغة البنت زيتونة، واعتبرها لغة تخلق من لغة الحلم عبر فرضية، وعبر رسم الجفون، وقال: هذه القصة والرسم واللغة مسرح كامل وقوي، وهي أفضل مني في فكرتها، قوية وإنسانية، وعمل فلسفي وفني.

ابتهج السائق لهذا الإطراء، ومدَّ يده لتشغيل الراديو. سمعنا وشوشة، ثم سمعنا ما يشبه مقتطفات من بيانات سياسية يمنية في مراحل مختلفة، مثل بيان ثورة 26 سبتمبر، بيان للملكية، ثم الثوار، ثم مقتطف من كلمة للرئيس جمال عبد الناصر، ثم بيان جلاء آخر جندي بريطاني من جنوب اليمن. توالى بشكل فوضوي وسريع بيانات لمراحل ماضية وحاضرة وربما مستقبلية، لم نفهمها، تشابكت ولم نعد نفهم شيئًا من كل هذا الضجيج. أخيرًا، توقف الضجيج وبدأنا نسمع صوتًا كأنه يأتي من الواقع بطيئًا، ويردد أغنية:

أنا يميني،

واسألوا التاريخ عني،

أنا يميني.

اتضح الصوت ناعماً وغنائياً.

دمعت عينا العم عبد الله، وهو يترحم على الشاعر إبراهيم علي صادق، ويتمنى أن يلتقيه، وقال: لو أننا دخلنا عالم الموتى فرصة نعرفكم على إبراهيم علي صادق، هو الذي كتب هذه القصيدة. هل تحفظها؟

حرّكت رأسي بلا. لم أقرأ كثيراً لإبراهيم صادق، وأحفظ فقط، كما يحفظ الملايين، المقطع الأول:

أنا يمّني

واسأل التاريخ عنيّ

أنا يمّني.

أنشد العم عبد الله مع الصوت بحماس الجزء الأخير من القصيدة:

أنا يمّني

ثورةٌ تبعثُ للعالمِ حميماً

ثورةٌ تُهدي إلى الشعب السلام

ثورةٌ فيها رؤوس الظلم تُكسّر

ثورةٌ الماضي على عهد الظلام

أنا بترولّ ونار

في وجوه الظالمين

أنا روضٌ واخضرار

لجموع الكادحين

وسأبني موطنًا

وسأبني من جديد

صائحًا يا أيُّها التاريخ سجِّلْ

أنا يمّني.

ابتسم العم عبد الله، وظننت أنه رأى ربما وجه صديقه الشاعر. ثم إذا بنا في جولة تاج سبأ، حلق بالباص مجموعة من الصبية حفاة عراة، يحملون الأعلام والبيارق ويغنون قصيدة «أنا يمّني». إذن عدنا إلى الواقع. تراحم علينا أطفال يترجوننا أن نشتري منهم ولو بعض الأعلام الصغيرة أو كتب الشعر الوطني، حتى يتمكنوا من الاشتراك في عشاء، ولو عشاء خبز وسحاق طماطم. برأيهم، الفول قدّه غداء البرجوازيين.

الفصل العاشر والأخير

تجاوزنا جولة تاج سبأ ووصلنا قرب جولة حدة، قرب أحد فروع البنك اليمني للإنشاء والتعمير. للمرة الثانية، وبدون سبب، توقف الباص ولم يعمل. شعرنا ببرودة غريبة، كأننا نجلس في كهف ثلجي. جاء عسكري وضرب الباص بعنف، وصرخ يطلب منك تحريك الباص بأي وسيلة، وكرر عدة مرات صارخًا: قلنا ممنوع الوقوف هنا ولو للحظة، ابصروا كُبر اللوحة، مكتوب ممنوع الوقوف، هنا البنك اليمني للإنشاء والتعمير، مش هو لعبة، هذه أموال شعب.

نظرنا إلى بعضنا بعضًا، كأننا نتفق على النزول ودفع الباص. فجأة ظهر شاب صغير، لكنه لا بأس، يبدو قوي البنية، وبما رغم حالة ملابسه الرثة. كان يحمل أدوات تنظيف زجاج السيارات: جردلاً وبعض الخرق وماسحة زجاج. وضعها في الباص، ثم بدأ يدفع الباص ويحركه بسلاسة، وهو يغني مطلع أغنية بصراحة، كلمات الشاعر لطفي جعفر أمان:

بصراحة إنت مش وحدك

اجيت تفتح لي قلبي

يا ما غيرك هكذا مثلك

هويته وغدر بي

وتركني بعدما أخلصت له

من كل قلبي

إيش لك مني ومن جي

وآلامي وغلبي

شوف لك غيري يحبك

أنا قد ضيّعت حبي.

تفاعل السائق والعم عبد الله مع الكلمات وغناها. يبدو أنني اكتشفت ضعف ذائقتي الغنائية، ولم أكن أعرف الأغنية لولا حديث عم عبد الله عن لطفي جعفر أمان، وأن القصيدة لحنها الفنان أحمد بن أحمد قاسم وغناها الفنان أحمد قاسم.

بلغ الشاب النشوة عندما وصل إلى المقطع قبل الأخير من الأغنية، فتحول غناؤه إلى بكاء وأنين خافت:

إنت طيب هكذا قلبي يقول

والله يعلم

إنت طيب بس عادك

ما عرفت الحب

ولا بالحب تفهم

شوف لك دنيا جديدة

غير قلبي اللي تحطم

بس لازم تستعد

للهجر والنيران والدم

أنا جرّبت الهوى جنة

وآخرها جهنم.

اشتغل الباص. عاد العسكري يضرب على مؤخرة الباص، يريدنا أن نتحرك بسرعة. الشاب بقي يردد عبارة: أنا جرّبت الهوى جنة وآخرها جهنم. يا له من مشهد يعجز المرء أن يستعيده.

اضطر السائق للسير، وبحثنا عن مكان يُسمح فيه الوقوف، وبعد جهد قمنا بركن الباص. خرجنا كلنا، ثلاثتنا نبحث عن الشاب، لم نجد له أثرًا. سألنا بعض المارة، ثم سألنا شابًا يعملون في غسل السيارات عنه، لم يفدنا أحد.

عدنا إلى الباص، وفوجئنا بشاب لحق بنا وأخبرنا أن الشاب العاشق الذي يغني أغنية «بصرache» ويكي ويردد عبارة «أنا جرّبت الهوى جنة وآخرها جهنم» هو المحطّم. ثم تحدث وقال: نعم، هو المحطّم. أحب بنتًا وتحطم قلبه، فخرج هائمًا بين الشوارع يغني أغنية «بصرache»، وعاد يغني أغنية أحبها. ثم صمت لدقيقة، ثم غنى مطلع الأغنية:

أحبها أحبها

أنا أحبها

أحلى الليالي جنبها

أحبها أحبها

مقدرش أعيش إلا بها.

ثم صمت وبكى. أكمل لنا القصة، وقال: المحطّم مات قبل سنة، صدمته سيارة بجانب اللوحة حق البنك التي مكتوب عليها ممنوع الوقوف. هذه الليلة السنوية، وقد ظهر لكم.

شعرنا برجفة من الأنين. أخذ الشاب الجردل وبقية أدوات التنظيف، وقال: أنتم ناس مباركين، أمانة احكوا للناس قصة المحطّم.

ابتسم العم عبد الله وقال: الله يرحمه، ويرحم هذا الشاب، ويرحم لطفى جعفر أمان، والفنان أحمد قاسم. قصة، ولا قصة من قصص ألف ليلة وليلة.

ضحك السائق وقال: هذه آخر ليلة قبل عام 2000. يقولون يمكن تكون آخر ليلة لنا وبكره يكون يوم القيامة. أوصّلكم وأرجع لعيالي، الليلة خميس وبكرة يوم القيامة. الواحد يموت ويُبعث في بيته ومع أهله أفضل من يقع في الشارع غريب ومنفي.

بلدوز أحمر

بلدوز أحمر

بعد سبع روايات كتبها بتقنية 50 فصل × 100 كلمة، ثم تجربة لاحقة بخمسين فصلاً كل منها 200 كلمة، أقدم هنا شكلاً ثالثاً: خمسة وعشرون فصلاً، كل فصل يقارب 250 كلمة. كل هذه التجارب نشاط إبداعي شيق ومغري، ومحاولة لاختبار طاقة اللغة عندما تُضغَط إلى أقصى حد، وتتحول كل فقرة إلى مشهد مستقل قادر على الوقوف بذاته، وفي الوقت نفسه ينساب ليكون رواية متماسكة.

كتابة هذا الشكل ليست سهلة؛ إنها تتطلب صبراً واستماعة عميقاً لنبض المشهد. حسّي وتفكيري كسينمائي وفنان تشكيلي أسهما في جعل كل تجربة مغامرة مثيرة. كل فصل يجب أن يكون وحدة سردية مكتملة، وله إيقاعه ومفارقته ومفاجأته، لكنه في الوقت ذاته جزء من نهر أكبر.

الزمن المتخيّل في الرواية قريب جداً: عام 2029، وهو ليس زمناً مستقبلياً بالمعنى العلمي، بل امتداد طبيعي لمسار اجتماعي وسياسي يعيشه اليمن اليوم، لكنه مضغوط ومفجّر سردياً بطرق مكثفة تُظهر ما هو كامن في الواقع أكثر مما تخترعه.

تدور الرواية في مدينة بيت الفقيه في تهامة اليمن، مدينة أعرف رائجتها: رائحة الشمس، والغبار، والمقاهي الصغيرة، والبيوت الطينية، وهشاشة الناس وجمالهم. اخترت هذا المكان لأنه يمتلك قدرة نادرة على تمثيل اليمن كله؛ مدينة تبدو ساكنة، لكنها مليئة بالطبقات والظلال والأسئلة. ما يحدث في بيت الفقيه يحدث في مدن أخرى، وما يعيشه الناس هنا هو صدى لما يعانيه مجتمع أوسع.

تبدأ الرواية بظهور البلدوز الأحمر، ماكينة هدم رسمية لكنها محمّلة بالخرافة والخوف، يتعامل معها الناس ككائن أسطوري، وتتحول رمزاً للقوة العمياء وللخراب الذي تُنتجه السلطة حين يتداخل الديني بالسياسي بالاقتصادي.

ومن حول هذا الرمز تتكشف الشخصيات: السوقيطي، معلم رياضيات يحاول أن يعيش بحدٍ أدنى من النجاة؛ بريشيا، الفتاة التي تحمل اسم مدينة إيطالية في بلد يجرّم الأسماء الغريبة؛ غاردا، الأخت المتمردة التي تقرأ العالم بعين أخرى وتدخل مواجهة غير متوقعة مع نظام كوني كامل؛ ثم سهام، الروبوت الذكي الذي يتحول من مجرد أداة تقنية إلى كائن سردي يمتلك تأثيرًا كبيرًا.

لا أظن الرواية سياسية بشكل مباشر؛ ما يغريني أن تكون إنسانية في جوهرها بالدرجة الأولى. إنها رواية عن الخوف، والمراقبة، والهشاشة، والنجاة، والأمل. رواية عن جيل يحاول أن يستعيد صوته وسط نظام يحكم بالرصاص والبارود، وعن مدن تُدار بالعنف والتجهيل باسم الفضيلة، وعن عالم يزداد اعتمادًا على الذكاء الاصطناعي بينما يزداد الإنسان ضياعًا.

لا أقدم هنا رواية مستقبلية ولا رواية واقعية، بل مزيجًا بين الاثنين: واقع يقترب من الخيال، وخیال يستند إلى واقع مؤلم. كل فصل يحمل مشهدًا، وكل مشهد يحمل سؤالًا: ماذا يحدث للمدن حين تُسحق ذاكرتها؟ ماذا يحدث للجيل الجديد حين يُطارده بلدوز بألوان مختلفة؟ وهل يمكن للحب، وللحلم، وللمعرفة، وللتقنية، أن تفتح نافذة صغيرة للنجاة؟

«بلدوز أحمر» اختبار لم يكن سهلاً في السرد المكثف، وفي كتابة المشهد بوصفه نواة لرواية كاملة، وفي مساءلة الزمن القريب قبل أن نصل إليه، وسؤال عن مستقبل الیمن وهذا الكون.

حمید عقی

الفصل الأول

يُصاب الناس بالذعر كلما رأوا البلدوز الأحمر الضخم يدخل المدينة، يقولون إنه لا يأتي بخير؛ فكلما دخل مدينة تهامية أحزن أهلها. بعضهم يسميه المدمرة كول، وبعض المثقفين يسمونه المدمرة بوتمكنين نسبةً إلى عنوان فيلم المخرج الروسي سيرغي أيزنشتاين، رغم أن أغلبهم لم يشاهدوا الفيلم، لكن الجميع يربطه بالتدمير. والغريب أنه يتبع وزارة الإنشاء والتعمير والهيئة اليمنية لتطوير وتحسين المدن، ويقال إنه تابع أيضًا لوزارة التنمية.

يرجع الكثير من الناس إلى السوقطري يسألونه عما يجهلونه. لا أحد يعرف لماذا سُمي بالسوقطري، وهو معلم رياضيات في المدرسة الثانوية. يُقال إنه يستخدم مواقع الذكاء الاصطناعي بشكل مميز، ولذلك يسأله الناس كثيرًا في مسائل الاقتصاد والتكنولوجيا والجغرافيا، وأحيانًا الدين. لكنه يهرب من أي سؤال عن البلدوز الأحمر، ويقول: هؤلاء قبصتهم القبر، وأحيانًا كثيرة تتمنى القبر بعد قبصتهم.

بيت الفقيه، مدينة تهامية كغيرها من مدن الساحل التهامي اليمني، تعاني من ظلمهم وجبروتهم، من غطرستهم ومكرهم، منذ دخلوا دون مقاومة، أو سُلمت لهم كما سُلمت المدن والمحافظات والمعسكرات وكل مؤسسات الدولة منذ 6 فبراير الأسود عام 2015 وإلى اليوم، نحن في 2029: ما يقارب من خمسة عشر عام بلا دولة ولا قانون.

من حين إلى آخر يخطب الزعيم من كهفه، يعد ويتوعد، يمني الناس بالجنة ورضوان الله ورضاه، ويهدد الأعداء بالويل والثبور وغضب الله وسخطه وسقوط أمريكا وإسرائيل. والحقيقة أن كل يوم يسقط المئات من الأطفال موتى بسبب الجوع وسوء التغذية وفقر الدم.

قبل يومين دخل البلدوز الأحمر وهدم بيتًا أثريًا قديمًا يعود لعائلة صوفية صغيرة لم تتاجر بالدين وبقيت في الظل. أُصيب عميد هذه الأسرة بشلل جزئي من هول الصدمة. ويقال إن المصائب كلها من ذلك الجاسوس الذي يسمونه أيضًا البلدوز الأصفر. يدّعي أنه رجل دين صالح يعمل من أجل البلاد، ويرفع شعار: نتقي شرّهم بالطاعة والصبر.

الفصل الثاني

تم تعيين البلدوز الأصفر رئيسًا ومسؤولًا عن خطباء المساجد. طمح أن يكون مفتي المدينة وذهب مرات عديدة إلى صنعاء وهو يلبس قلنسوة خضراء وعباءة خضراء رمزًا للطاعة ودليلاً على أنه قريب من أهل السلطة. ورغم ما يقدمه لهم من خدمات، إلا أنهم لم يعينوه مفتيًا. يتهامس البعض ويقول: حتى لو مشى على سجاد أخضر سيظل في ذهن الناس وعقولهم البلدوز الأصفر. هو كوكتيل غريب من كل سيئة؛ فهو مخبر وجاسوس وشاهد زور ووسيط في عشرات الرشاوى.

سمع طلبة المدرسة الثانوية البلدوز الأحمر وهو يدمر سور مدرستهم الجنوبي ويستولي على الملعب وميدان الرياضة. دخل مدير المدرسة كل فصل دراسي وخلفه البلدوز الأصفر الذي بدأ يشرح للطلبة مهمة البلدوز الأحمر. قال لهم: سور المدرسة الجنوبي آيلٌ للسقوط، والدولة تحافظ على حياتكم بهدمه. وأما ملعب الكرة، فأنتم جيل يجب أن يتعلم ويُعَدَّ نفسه للجهاد، لا لتزييت كرة منفوخة بالهواء. الله اختاركم لرفع كلمته وطاعة سيدكم، سيد هذا القرن وللعالمين، مجدد الدين والكرامة ومُعَلِّي كلمة رب العالمين.

عند خروج البلدوز الأصفر ضحك الطلبة ومعلمهم السوقطري. ضحكوا بعفوية، ولم يدخلوا في جدل ولا نقاش ولا تحليل لكلامه. كان الضحك كافيًا وأبلغ من كل كلام. نظروا إلى ملعبهم الذي سيتحول إلى سوبر ماركت وعمارة. معروف جدًا أن أيادي خططت ونفذت وستريح الملايين من وراء هذا المشروع "التنموي" بحسب رأي البلدوز الأصفر.

حدثت شائعات كثيرة أحدثت بلبلة كبيرة في المدينة. يُقال إنه تم اختيار مدينة بيت الفقيه مقرًا للبلدوز الأحمر، وأن هناك خريطة وبنكًا للأهداف: مئة هدف في بيت

الفقيه ومئة هدف في مدينة زبيد، ويجب أن تُستكمل الخطة التنموية خلال ستة أشهر. تحديث خمس مدن: بيت الفقيه، زبيد، المنصورية، الجراحي، وحيس. الخطة البلدوية . كما يسميها الناس . سوف تمحو عشرات المباني الأثرية، وتستولي على أحواش المدارس، وتزيل مقابر، وعلى الناس أن يصفقوا لهذه "العبقرية التنموية"

الفصل الثالث

بدأت تصرفات السوقطري محسوبة، بدأ يحسب كلامه وتصرفاته ويرفض رفضاً باتاً الحديث عن أنواع البلدوزات. قال له صديقه سنان: بريشيا، جعلتك مثل الألف، أه ليت وأنا أجد حبيبة تخليني أشعر بأنه يوجد مستقبل في هذا البلد، بلد الصراعات والخطب الرنانة والمقابر.

رد السوقطري: بريشيا، ليس كمثليها شيء، أدب وبنت ناس.

سأله الصديق: سمعتُ أن شهادة تخرجها محجوزة، يقولون حجزها ضيف الشرف البرميل الذي أحضرته الجامعة لتوزيع الشهادات والدروع على المتفوقات في الجامعة. فهمني، ما يعني اسم بريشيا؟

رد السوقطري: يا أخي، بريشيا مدينة تاريخية معروفة في شمال إيطاليا. خبرتني أن أباه كان يحلم زمان يسافر إيطاليا، لذلك سماها بريشيا وسَمَّى أختها غاردا، وغاردا بحيرة قرب بريشيا. هؤلاء يقولون إن الاسم نجاسة وكفر، لا هم فاهمين معناها ولا حتى يبحثون. صادروا شهادتها وحبسوا والدها وخرج بكفالة كبيرة.

قال الصديق: الخطأ مش من هذه البلدوزات التي تعصف بمدينتنا، الخطأ في هؤلاء رؤساء الجامعات ومدراء المدارس. كلما أقاموا مؤتمراً علمياً أو فعالية ثقافية يأتون لنا بهؤلاء المدّمرين الجهلة. البلدوز الأحمر يهدم تراثنا، والبلدوز الأصفر يتبرقع بقصائد النفاق، وهؤلاء بلدوزات الجهل يخربون جامعاتنا. ما هو رأيك يا سوقطري؟
نعمل ثورة؟

هنا يقفز السوقطري كالمندوغ. كلمة ثورة أو حتى ثور لم يعد الناس ينطقون بها مخافة أن تدوسهم هذه البلدوزات التي تتكاثر، تتماذى في الهدم والعنف.

في المساء اتصلت بريشيا بالسوقطري وأخبرته أن والدها لم يعد إلى البيت. شوارع المدينة شبه مظلمة، والمشي ليلاً كالرقص على الجمر. البالوعات مفتوحة، كلاب جائعة مشردة، قطط تتحوم كأنها جن. يقول الناس إنه منذ دخل البلدوز الأحمر والجن تتراكم في أزقة المدينة. بعضهم يقسم أنه يراها في عز الظهيرة. القائلة جنية خطيرة تخرج وسط الظهيرة، تختطف الأطفال وتاكلهم.

الفصل الرابع

خرج السوقطري في الظلام الدامس يبحث عن والد خطيبته. نعم، لقد قرأ الفاتحة مع والدها وهي الآن خطيبته. ليلٌ صامت، ومن حين لآخر يُسمع نباح الكلاب الضالة وضجيج المعارك بين القطط، ويضيف البعض بزعيق الجن. السوق في وسط المدينة، خاصة الجزء الجنوبي منه والحي التجاري، يكون فيه النشاط والحركة، أما فوق السوق فهو مظلم جدًا. تنتشر مقاهٍ أو دكاك شاي صغيرة قليلة في الخط بين السوق ومدخل المدينة.

في الحي التجاري هناك بلدوزات التجارة. منذ سنوات ومع استمرار حالة القحط والجوع تضطر الناس لرهن بيوتها وأخذ ديون بفوائد، لكنهم يقولون إنها طريقة إسلامية. يتلغنم السوقطري كلما سُئل عن حكم الشرع في كل هذا. هو يسأل الذكاء الاصطناعي، لكن يصعب قول بعض إجاباته. الإعلام وخطب الجمعة وأمناء ومشرفو المدن . وهم الحكام الحقيقيون . جميعهم يقولون إن البلد تشهد حياة إيمانية ونفحات ربانية تشبه فترة حياة الرسول خلال معركة الأحزاب. وخطب مشرف مكتب التربية في طابور الصباح وقارن بين ما يعيشه اليمن الخاضع لسلطة السيد وحياة المدينة المنورة التي كما يحكمها جد السيد وكانت تواجه غطوسة الكفر، لكن الله بالتراب والريح نصر رسوله، وهو قادر أن ينصر حفيد الرسول . القائد العظيم . بكل الوسائل.

أخيرًا عثر السوقطري على عمّه أبو بريشيا. كان الرجل يرهن جزءًا من بيته. طلبوا نصف مليون ريال للإفراج عن الشهادة الجامعية، وقيل له إن هذا ليس عقابًا، مجرد قرصة أذن، وعليه أن يزوّج ابنته سريعًا ويغيّر اسمها، لأن القاضي لن يعمد عقد الزواج بهذا الاسم. امرأة وأم يمنية يجب أن تحمل اسمًا ذو قداسة دينية لأنه قدوة لأجيال الجهاد والنصر المبين.

بكى الرجل وهو ينظر إلى أثر البصمة على إبهامه، وقال: وقّعت لهم وبصمت. لله الأمر من قبل ومن بعد. جهّز نفسك يا ابني، أريد أطمئن على بريشيا، بريشيا أمانة في عنقك.

سمعوا صراخًا وعويلاً. تراكض الناس بمصابيح يدوية وهم يحمون مصاحف، ويقولون إن الجن اختطفوا عجلًا سمينًا من بيت رجل فقير. كان العجل رأس ماله، ربّاه ليسجل ابنته في الجامعة. يبدو أن الجن لا تريد للبنات أن يذهبن إلى الجامعة.

الفصل الخامس

في اليوم التالي تمكن السوقطري بواسطة ناس يعرفهم من تحرير دبلوم خطيبته وجاء به فرحاً. قال الأب إنه سيخصم له نصف المهر. لم يأبه السوقطري بحساب كم دفع أو كم سيدفع. فرحت بريشيا وأعدت له كأس شاي. سرعان ما شعر الأب بالفرع وطلب من خطيب ابنته أن يغادر. الأعين والجواسيس في كل حي وزقاق، وقد تأتي شرطة الإيمان والطهارة. اخترعت هذه الميليشيات مئات الأسماء للجان وأقسام شرطة وتأديب وردع للرديلة بحسب زعمهم. هذه المسميات جعلتهم يتدخلون في حياة الناس، يداهمون البيوت، وقد يُوقفون أي امرأة لتفتيش هاتفها بدعوى الفضيلة، لكنهم لا يمسكون لصوص العجول والخرفان وحتى لصوص الدجاج، ويشيعون أن الجن هي من أخذت عجل فلان أو كبش فلانة.

صرخت بريشيا: معقول؟! هذه مدينتنا أصبحت مرعوبة، لا يحق لنا نستقبل ضيوفنا، هناك بيوت يقع فيها مصايب.

استأذن السوقطري وطلب أن يُحدّد موعد عقد الزواج. كان بالسابق الأمر سهلاً؛ الناس تتزوج وتعقد العقود في البيوت وبعدها يُستخرج عقد الزواج. لكن الآن نحن نعيش في العام 2029. هناك معاملة وبحث في سيرة وسلوك الزوج والزوجة. هو أسلوب رخيص للابتزاز، كل شيء يسير بالمال. البلدوز الأصفر يُنهي مثل هذه المعاملات بسهولة وفي زمن قياسي. يطلب حقه وحقهم. أمناء ومشرفو المدن وحاشيتهم، كل واحد يقول: حقي. تريد أن تبني أو ترقم جداراً عليك أن تدفع لهم. تريد أن تتزوج أو تسجل بالجامعة أيضاً يجب أن تدفع لهم. تريد سريراً لمريضك أو قبراً لميتك، عليك كذلك أن تدفع بنفس راضية وتُظهر محبتك وطاعتك لهؤلاء المجاهدين الذين يستحقون الجنة لإخلاصهم وطاعتهم للمعجزة، القائد الفذ.

يقول سنان إن الكارثة العظمى شهادة حسن سيرة وسلوك للميت قبل الدفن. أحدهم ابتكر هذا القانون، وتم منع بيع أي كفن أو تغسيل أي ميت إلا بشهادة تثبت سلامة إيمان الميت وصدق حبه للقائد وآل البيت، وإلا يُمنع تكفينه وتغسيله ودفنه إن مات ميتة جاهلية.

الفصل السادس

ذهب السوقطري ليسحب استثماره حسن سيرة وسلوك وأخذ خطوة أولى في معاملة الزواج، بعدها فحص طبي، والأهم هي المقابلة مع لجنة التسهيل والتيسير ثم لجنة العفة والحلال. كل ورقة وختم على المراجع دفع حق الشاي وحق القهوة.

قال له سنان: لماذا أنت خائف؟ لم تُعتقل أو حتى تدخل قسم شرطة في حياتك، وأنت تخدم الناس بالمجان بالذكاء الاصطناعي.

حدثت أول عرقلة ساعتين كاملتين في أول لقاء مع لجنة التسهيل. سأله رئيس اللجنة عن ماهية الذكاء الاصطناعي وهل يعتقد أن للكمبيوتر عقلاً؟

حاول السوقطري واستخدام ألف عبارة وعبارة ليشرح بأن كل شيء رياضيات وخوارزميات. تناقش أعضاء اللجنة حول شرعية تعلّم الرياضيات وهل هي حلال أم حرام؟

ضحك وبكى السوقطري عندما تركوه لوحده في الاستراحة. عليه أن يحسم أمره، هؤلاء لا يفهمون، عقولهم بليدة، عليه القول: نعم وحاضر، وإلا ستظل المعاملة لمدة سنة. فعل ما بوسعه، ومع ذلك طلبوا منه أن يعود في الغد. رأى البلدوز الأصفر يقبل عليه معاتباً، وقال إنه مستعد لخدمته: نعطيهم حقهم وأنا أخذ نصف حقي.

شكره السوقطري وانسحب مرهقاً. بريشيا ترفض اللجوء لبلدوز أصفر وتراه رجلاً منافقاً ومتخلفاً، إنساناً غير مضبوط وناقص الإنسانية.

دائماً يطلب منها والدها أن تسكت؛ كلامها كارثي وقد يُدخلهم جميعاً في مليون سين وجيم.

عاد السوقطري إلى البيت منهكاً. استقبلته أمه، لم تدر كيف تدعمه.

تبادر فجأة في ذهنه سؤال، سألها: هل نحن من سوقطرة؟

أكدت بنعم، وأن جده السوقطري الأول جاء هذه المدينة وكان يعشق الأولياء. حكّت له عن مدينة بيت الفقيه وأسماء عدد كبير من الأولياء والصالحين وكراماتهم أيام زمان، لذلك لم يكسرهما الظلمة والمستبدون، كانت تقع ثم تعود وتمهض بفضل الشيخ أحمد بن موسى بن عجيل الذي تعهّد بحماية المدينة بقوله: أنا بحرهما وأنا جبلها.

الفصل السابع

في صباح اليوم التالي ضجّت المدينة بالحركة ورُفعت الأعلام الخضراء. إنها واحدة من الزيارات لرجال، قادة درجة ثالثة، ومع ذلك كل واحد يريد أن يُحتفى به ويتعطل نصف يوم دراسي من أجل خطبة غبية. كلما جاء واحد من هؤلاء يتخذ من المدرسة الثانوية مركزًا خطابيًا. اجتمع المعلمون والمدير. همس أستاذ الفيزياء إلى السوقطري وقال: لو كل يومين وثلاثة زيارة وخطابة وهتاف، مستحيل ننجز ربع المنهج. شوفت تعليمات الوزارة؟ كل شهر يرسلوا أمر بحذف موضوع. يقولوا يريدوا فقط مواد إسلامية، أو يُأسلموا الفيزياء والكيمياء والرياضيات والأحياء. ألغيت مادة الفلسفة وعلم الاجتماع والاقتصاد. قرروا كتاب الزكاة، يقولون عندما يدفع كل الناس الزكاة يتطهر المجتمع، يتطهر البدن والمال، لكن دفع رواتب المعلمين يعتبرونه شيء آخر، مش مشكلة، ربما تُحل السنة القادمة.

سمع المدير بعض همسات معلم الفيزياء، أمسك السوقطري وهمس له: أنت تريد شهادة حسن سيرة وسلوك، وربي يوفقك وتتم معاملة الزواج. ابتعد عن أي ضجيج وتشويش. اربط الحمار فين ما يريد صاحبه. نحن ناس نطيع أولي الأمر، من كان زوج أمنا هو عمنا. انتبه لنفسك، يوجد حاجات ما فيها صفاط ولا مزاح، عندهم زنانات تحت الأرض يخاف منها الجن والمردة الكبار.

لاحظ أن كلام المدير بدأ ناعمًا وانتهى بالتهديد والوعيد. ربما كل مديري الهيئات والمؤسسات مدرّبون على الحديث للموظفين بهذا الشكل.

كان يريد أن يتحدث إلى إنسان عاقل. اتصل بخطيبته وأخبرها بما يحدث. ضحكت وقالت: ما يحدث في الجامعات أفضع بكثير. يوم مهرجان بدر، ويوم أحد، ويوم للهجرة، وشهر للمولد. يذهب العام الدراسي في المسيرات والهتاف. سمّيت البراميل

بلدوزات غبية، كروش منفوخة وأفواه نتنة. والغريب أنهم سيفتحون كلية هندسة مركبات فضائية.

ضحكت وقالت: اللعنة عليهم وعلى الحشيش الذي يشربوه رغم أنه خصوصي جدًا.

الفصل الثامن

يُعتبر يوم الجمعة سوق المدينة الكبير. مرت عدة عقود ولا يزال السوق يحتفظ بجاذبيته. طلب والد بريشيا من السوقطري أن يرافقه ليرد المال للتاجر ويستعيد أوراق منزله.

ظنّا أنه مشوار سهل لن يأخذ وقتًا، لكن التاجر رفض أن يعيد الأوراق وزعم أن صرف الدولار تغير، وقال إنه يمكن أن يأخذ القسط الأول. في ذلك الوقت كان نائب المشرف يتجول في السوق، يسمونه المجاهد أبو بدر. همس التاجر في أذن المجاهد، ضحك المجاهد وخاطب أبو بريشيا بأن لا يعطّل رزق الرجل ويرحل. هنا، في هذه اللحظة، حدث شيء مرعب: أمسك العسكر رجلًا كبيرًا في السن وأخرج، وقالوا إنه سرق رغيف خبز.

هنگاضب نائب المشرف وطلب إحضار السارق. كان الرجل يرتجف. حكم المجاهد أبو بدر بجلد السارق عشر جلادات، وطلب من أحد العساكر أن يفك حزامه. أخذ المجاهد الحزام وبدأ في جلد السارق، ثم ترك الجندي يكمل. حدث كل شيء بسرعة ولم تُسمع كلمة واحدة من المتهم.

بدأ موعد خطبة وصلاة الجمعة، حيث تتزاحم الناس على الجوامع التي يخطب فيها المشرف ونائباه. مدينة بيت الفقيه مدينة تجارية غنيّة بالموارد، لذلك فالمناصب السيادية مُربحة جدًّا؛ يُعيّن المشرف ونوابه من صعدة، وبقية المسؤوليات من صنعاء. أغلب المسؤولين ليسوا من أهل تهامة. مدير الأمن صبي صغير، يقولون إنه ابن شهيد من صعدة، لذلك تخرّج من كلية الشرطة بعد سنة واحدة ومُنح رتبة إضافية. المسؤولون من أبناء المدينة مطلوب منهم أن يكونوا دلالين، مثل البلدوز الأصفر ومدير المدرسة.

خُطبة الجمعة تحدّثت عن العدل وإقامة حدود الله. قال نائب المشرف: دولتنا قرآنية، نُنَفِّذ الحكم الشرعي في دقيقتَه. وتحدّث كيف أن عسكره قبضوا على رجل قوي البنية، عاقل، مُكلّف، وسرق خبْزًا، لذلك أقام عليه الحد. وقال: اليوم يسرق خبْزًا وغدًا سيسرق ذهبًا. اليوم يسرق فقط، وإذا لم نؤدِّبه فإنه غدًا سيسرق ويقتل ويفسد في الأرض.

الفصل التاسع

عاد السوقطري إلى بيته متعبًا. يعجبه أن يتحدث إلى أمه، أن يسمع منها ما يريد قوله، وهي غالبًا ما تتحدث عن تاريخ العائلة التي امتنت شراء وبيع العسل البلدي. السوقطري درس في الجامعة، تخرج وتعين كمعلم، ثم حدث ما حدث فكانت الحرب. قال لأمه: إحدى اللعنات الكبرى في الحياة أن يكون الإنسان متأقلم بطبعه وعادي، أن يُستحوذ عليه وأن يقبل بالخضوع ويعتبر المقاومة خيانة.

ضحكت الأم وقالت: كلامك حلو وأنا لم أفهمه. أهم شيء بريشيا تفهمك وأنت تفهمها. من يجري وراء الناس وكلام الناس يتعبوه. الناس تعبها الحرب والفقر والمرض. الله يرحمه أبوك مات طيب قبل ما يرى المصائب التي تحدث.

تصمت، تضحك، تترحم على زوجها، ثم تنهي حديثها: أبوك الله يرحمه كان يقول: أعوذ بالله من الحزن، من يمرض قلب الإنسان بالحزن ولا يموت.

قطع صوت هذه اللحظة صوتُ سنان، طرق الباب بقوة. فتح السوقطري لصديقه الذي ظل يصرخ: قفل الباب، يقولون توجد غوريلا متوحشة تأكل الناس. أغلق السوقطري الباب، لم يسمع ضجيجًا ولا شيئًا غير مألوف.

حكى سنان لصديقه أنه كان عائدًا للبيت، شاهد الناس تجري وتركض وتقول: غوريلا! ففعل مثلهم. ضحك السوقطري. ذهبت الأم لتنام. قال سنان: بالله عليك اسأل صاحبك الذكاء الاصطناعي وقل له هل يمكن تأتي غوريلا في بيت الفقيه؟

ضحك السوقطري وتذكر كلمات بريشيا: ما يحدث بهذه المدينة يحدث ويتكرر في كل المدن اليمنية؛ حالة من الهزيمة، الانسحاب من الذات، خوف بلا حدود، وكما كانت تتحدث أمي قبل قليل: حزن وقلوب مريضة متألمة لكن الموت مؤجل. أظنها تقصد هذا حالنا.

همس سنان لصديقه: شوف يا أخي، عضّة الغوريلا أرحم من قبضة الأمن السياسي.
كنت أحكي قليل بالسياسة، ولكن أمس البلدوز الأصفر مسكني وقال لي: السياسة
ملعونة والكلام السياسي ملعون، يغضب الله ويفرح الشيطان وعاقبته ندم.
أستاذك، شرّ الغوريلا أهون من غضب الله.

الفصل العاشر

سألت بريشيا خطيبها ما الذي يحبه في مدينة بيت الفقيه، رد فوراً: أنتِ. أعادت السؤال بجدية، ابتسم قلبه وكأنه شعر به يخرج من مكانه، يتجول كمصور وفنان يلتقط صور ابتسامات الوجوه. قال مجيباً: إنها عالم مختلف، أشتاق إليها إذا غادرتها حتى ولو ليوم. أظن أن حياتي ستكون قاسية لو تعرضت للنفي أو عجزت عن العودة إليها. رائعة بهائها، بضوء الشروق والغروب، وسقوط أشعة الشمس على منارة الجامع الكبير مثلاً، أو الجدران العتيقة التي يقوم البلدوز الأحمر بهدمها. لست بشاعر ولا فنان تشكيلي، ولكن أظن أن هذه المدينة تمتلك ضوءاًها وألوانها الخاصة، تخلق مع الناس حميمية، أعجز عن وصفها، تعبيري ضعيف للأسف.

قالت: كنت أسمع من جدي وأنا طفلة أن الله يحب هذه المدينة. الناس تعايشت مع الناس والنبات والأشجار والحيوان، ولم تكن تحدث بينهم مشاكل كثيرة؛ المستعمرون زرعوا البغضاء، الخوف والذل. المدينة اليوم ذليلة وبائسة؛ أنا أتذكر طفولتي: وجه الشمس الذهبي ووجه القمر الفضي وغناء العصافير.

كان السوقطري يتحدث إلى خطيبته بالهاتف قرب سور المدرسة الذي هدمه البلدوز الأحمر، فُوجئ بكلب كأنه ذئب صناعي، كلب رهيب واسع الرقبة وقصير الذيل. سرعان ما سمع صفير، وهنا ظهر رجل كان يضحك من منظر السوقطري. ركض الكلب إلى صاحبه الذي عرف بنفسه بقوله: المجاهد نصير الحق، النائب الثالث الجديد للمشرف. سأتولى الإشراف على الخدمات الصحية والتعليمية. أحب الصيد وهذا كلب صيد ثمنه عشرون مليون يماني، قيمة عشرين زوجة وامراً.

أشار النائب لأحد مرافقيه وربط الكلب وأمره أن يعيده للبيت ويجلب له نصف كيلو لحم بلدي بدون دهن ويعملها دُقّة. شرح له طريقة طبخ فطور الكلب وشدد على

ضرورة أن تكون لحم ضأن بلدي. ضحك وقال: بلادكم مشهورة باللحم والعسل والهواء والزهر والفل والياسمين. أنت أستاذ بالمدرسة، ولكن لماذا تتأخر عن عملك؟ شوف، سوف نصحج كل هذا الفساد... فساد المعلمين وكسلهم.

الفصل الحادي عشر

هذا اليوم لم يكن يومًا عاديًا، لم يحضر معلم الفيزياء، بعض الهمسات تتحدث أن الغوريلا أكلته في الليلة الفائتة، البلدوز الأصفر طعنته غادرة وهو الذي دعم مدير المدرسة ليكون في المنصب. دخل السوقطري فصله فوجد طلبته خائفين، يتحدثون عن الغوريلا المتوحشة التي تأخذ ضحاياها إلى أسفل سافلين حيث لا ليل ولا نهار، لا شمس ولا قمر ولا هواء، لا موت ولا حياة.

ردد السوقطري: مساكين شباب اليمن، نحن في عام 2029، شباب الدول المجاورة ينتقلون من مهرجان طعام إلى فرجة سباق السيارات إلى الأوبرا أو السيرك، هنا شعب بأكمله يعيش في سيرك مختلف، شعب يُجلد ويُساق إلى أقفاص متعفنة.

وصل النائب المجاهد نصير الحق، دار في الفصل ثم تحدث بكلام غبي غير متجانس، تحدث عن كلية علوم وهندسة المركبات الفضائية، تحدث عما يمتلكه اليمن من منظومات صاروخية هجومية وبحرية أرعبت الأعداء وصنعت مجداً يمنيًا عالميًا، وطالب الطلبة أن يجعلوا القائد رمزهم وقودتهم.

ظل السوقطري يشير إلى طلبته بأن يلتزموا الهدوء والصبر والصمت. قرأ في وجوههم عشرات الأسئلة، وللحظة تخيل أن أحدهم صرخ يسأل: عن أي قائد وقودة يعيش في كهف محصن؟ وعن أي شعب سعيد تغتاله الغوريلات، تسحب الناس من منازلهم، من بين عوائلهم، وتقودهم إلى جهنم مجهول؟

للحظة شاهد السوقطري طلبته يقذفون هذا الزنبيل بأحذيتهم المتهترئة.

دخل مدير المدرسة والبلدوز الأصفر، ثم تحدث هذا الرجل عن تحريك البلدوز الأحمر لهدم مدرسة البنات، وأن خطة جديدة لبناء مدارس إسلامية بمواصفات خاصة: أسوار عالية ونوافذ من زجاج أسود ومنهج خاص يقرب البنات من ربهم.

ختم بقوله: منهج يعلم أن الحرمة كل شيء فيها حرام، صوتهها حرام وشعرها حرام ووجهها حرام، والله خلق الحريم للطاعة، البنت تطيع أبوها والزوجة تطيع زوجها، نحن دولة وقادة يدخلون شعهم الجنة بينما انظروا دول كثيرة وقادة كثيرين يدخلون شعهم جهنم.

الفصل الثاني عشر

ذعر جديد عمّ المدينة بأكملها عندما توجه البلدوز الأحمر لهدم مسجد الماس، كان يُسمّى سابقًا مسجد الجن. كان الناس لا يصلون فيه صلاة الفجر لأن الجن يجتمعون بكثرة في وقت الفجر. يقال إن البعض كان يغامر ويصلي الفجر معهم، وتكون النتيجة إما يُصاب بالجنون أو يُرزق بمال وفير جدًا، ولكن مال الجن يعقبه الندم بحسب رأي أم السوقطري. حذرت ابنها ألا يأخذ من مال الجن، يصبح المرء عنده المال لكنه يُبتلى في عقله أو جسده بعلة ليس لها دواء.

كانت حياة الناس مرتبطة جدًا بوجود الجن، ثم حدثت تطورات وانفتاح فكري نوعًا ما. دخل التلفزيون وفتحت المدارس أبوابها ودخلت الكهرباء، تطورت المدينة وأصبحت من أكبر مدن الساحل التهامي. منذ دخل هؤلاء تهامة وحكموها بدأت تُغلق المدارس وضعفت الكهرباء، عادت حكايات الجن والعفاريت ولجوء الناس للمشعوذين.

ضحك السوقطري وهو يتحدث واتساب مع خطيبته بريشيا وقال لها: تصوري مرّ أسبوع كامل لم يأت يسألني أي واحد عن أي موضوع. صديقنا الشات جي بي تي سألني: ماذا حدث للناس؟ لم تعد تسألنا عن الكون والجغرافيا ومدن العالم.

قلتُ له: هم يذهبون للمشعوذين والمشعوذات، يشترون التماثيل والطلاسم، يدقّون خارج أبوابهم مسامير كبيرة صدئة يشترونها من دجال يزعم أنها تمنع دخول الجن إلى البيوت.

السلطات لا تمنع الدجل، تشجع على الخرافات وكل شيء يجعل خوف الناس يكبر. ظهر وعّاظ متحمسون يصرخون ليل نهار بقرب يوم القيامة، وعذاب القبر، وعذاب جهنم، وضرورة التخلي عن الدنيا، ومجموعة أخرى تطرق البيوت وتستوقف الناس

يطالبونهم التبرع بالمال والحلي وأي شيء ثمين من أجل نصرة المجاهدين وأبطال القوة الصاروخية والإعداد لمعركة كبرى مع أمريكا وهزيمتها في قُرّ دارها.

ضحكت بريشيا وقالت: هؤلاء هنا كفزّاعة. أمريكا ودول كبرى، كلهم يريدون بيع أنظمة دفاع لدول المنطقة، لذلك يهوّنون من قوة الميليشيات. السياسة كلها تجارة، عصر ما بعد الإنسانية.

ثم سألته عن معاملة الزواج، وعدها أن يتمّها سريعًا.

الفصل الثالث عشر

هذا اليوم حدث زلزال عنيف هز كل المدن التهامية، لم يكن زلزالاً أرضياً، كان زلزال الأعرج؛ الشيبة التهامي الأعرج الذي جلده نائب المشرف بحزام عسكري بتهمة سرقة رغيف خبز صغير وبأثت. انتقم لنفسه وشرفه وطعن مؤخرة نائب المشرف بسكينة حادة. جاء سنان إلى المقيّل الصغير لبعض المعلمين وحكى لهم ما حدث: الشيبة الضعيف المريض انتقم لجلده وشرفه، حضرت طائفة طبية هليكوبتر وأسعفته، يعني عندنا سيارات وطائرات إسعاف، نحن بلد متطور.

في مثل هذه المواقف يظل السوقطري يتأمل الوجوه وينصت للحوارات الداخلية العميقة بين زملائه، يترجم ما يصرحون به من غضب واحتجاج، لكنهم يحاولون التمويه حتى لا يُتهموا بالردة أو الزندقة أو العمالة.

بعد ساعة واحدة من الحادثة تم شنق الشيبة الأعرج وتعليق جسده بونش طويل بوسط المدينة، وصلت عشرة أطقم عسكرية إلى المدينة وحملة اعتقالات، يقولون إن هذا الرجل عميل لإسرائيل وتوجد خلية جاسوسية هدفها إرهاب قادة الجهاد رضوان الله عليهم.

بعد ثلاث ساعات من الحادثة بدأ التجار يرفعون الأعلام الخضراء وصور قائد النصر المبين وصور المجاهد أبو بدر. نائب مشرف المدينة الذي اغتالته قوى العمالة والشر.

حدث ما يشبه حظر تجول، دخل الناس إلى البيوت خوفاً من عملية انتقام كبرى للميليشيات. الرجل الأعرج كان يسكن في بيت صغير جداً بحارة فقيرة، مع ذلك فجّروا بيته وقالوا إنه كان مقر عملية العملاء.

اتصلت بريشيا تطلب من خطيبها ألا يخرج من البيت، سوف تُغلق المدينة لثلاثة أيام
حدادًا على فقدان شهيد المجاهدين أبو بدر، وعلى الناس أن تُظهر حزنها؛ فلا أفراح
ولا مدارس ولا جامعة. تدفق الناس في طوابير طويلة يحملون تبرعات ومساهمات
للجان المجاهدين والدفاع عن الشرف والدين.

قررت البلدية تسمية الشارع العام ووسط المدينة باسم الشهيد أبو بدر، أُقيمت
عشرات سرادق العزاء وصدح صوت الحفظة بتراتيل تمجد الشهادة والشهيد
المجاهد أبو بدر.

الفصل الرابع عشر

مرت ثلاثة أيام قاسية على مدينة بيت الفقيه وكل مدن تهامة، حدثت اعتقالات تعسفية، مصادرة أراضي ومزارع، وتفخيخ ثم تفجير بيوت. ظل البلدوز الأحمر يعمل ليل نهار، ينتقل بين بيت الفقيه وزبيد ويصل إلى حيس.

سمع السوقطري طلبته يتهامون ويقلدون أنيس وبدر. إحدى فقرات مسلسل افتح يا سمسم والذي كان يُبث من صنعاء وقنوات شمالية، لكنه توقف بعد مقتل أبو بدر. لكن بعض القنوات الجنوبية بدأت تبث المسلسل وتُركز على مواقف أنيس وبدر، ثم سرعان ما بدأت قنوات عدنية تبث المسلسل السوري باب الحارة وتُركز على شخصية أبو بدر وخضوعه لزوجته ومواقفه الكوميدية. تم تسييس أشياء كثيرة، تراشق بمسلسلات كرتونية وتمثيلية عربية وأغانٍ يمنية. تصاعد التوتر وعاشت تهامة أجواء حرب.

حدثت توترات عسكرية بالساحل، قُطعت الطرق بين المدن، وحل كرب كبير بالناس. تصاعدت قوة النائب الثالث لمشرف بيت الفقيه ومنح رتبة عقيد ولقب المجاهد الشاب نصير الحق، وتمت ترقيته للنائب الأول. فُرضت رسوم ومكوس جديدة على كل خدمة وحركة.

تسعي بريشيا هذا البرميل نائب مشرف المدينة بـ"نصير الباطل". كانت تبث غضبها منه عندما تتصل بخطيبها السوقطري. بعد يوم من توليه الرتبة أرسل نصير الحق يطلب تجهيز غاردا لتكون زوجته. جاء البلدوز الأصفر يحمل كبشين كبيرين وكيس أرز وكيس دقيق وجبة بها ملابس العروس. لا خطبة ولا مشورة، أشبه بالأمر العسكري. كادت بريشيا تُجن، وكذلك والدها. بكت غاردا الليل كله وهددت أنها

سوف تنتحر. كانت تصرخ: أي شخص متعجرف! في مشيته هزة كأن شيئاً داخل مؤخرته! هكذا تصفه بنات الجامعة. كيف جعلوا هذا المسخ برتبة عقيد؟

ترجّت غاردا والدها بسرعة مغادرة المدينة واقترحت الذهاب إلى عدن، توجد هناك منظمات الحماية من العنف الجنسي.

اتصلت بريشيا بالسوقطري وهي تبكي وتروي له ما يحدث. سألته: بالله عليك اشرح قصتنا للذكاء الاصطناعي واسأله ما الحلول وكيف ننقذ أختي غاردا؟

الفصل الخامس عشر

عاد البلدوز الأحمر، وهذه المرة يهدد ضريح الشيخ أحمد بن موسى العجيل، مؤسس المدينة. زعم نصير الحق في خطبة داخل الجامعة بضرورة تحرير هذه المدينة من الخرافة وعبادة القبور إلى عبادة رب القبور. أصيب بالغضب بسبب قصيدة شعبية لم يعرف أحد من كتبها لكنها انتشرت وحفظها المئات. شرح السوقطري لصديقه سنان قراءة الشات جي بي تي للقصيدة: أنها تعطي صوتاً لمن لا صوت له، تحتفي بآبن عجيل كمعلمهم وخاصة كلمته الشهيرة: بيت الفقيه أنا بحرهما وجبلها، والقصيدة عملت على هذا المفهوم، نقلت ما يعجز الناس قوله.

حدث شيء عظيم أدى لتأخير قدوم نصير الحق لأخذ غاردا إلى بيت الزوجية أو العبودية. حدث أن أصيب البلدوز الأحمر بعطل بوسط المدينة في الخط العام وأعاق حركة المرور. لم يفلح أي مهندس ميكانيكي في معرفة سبب العطل وتم التواصل مع الشركة المصنعة، واتضح أنها شركة أمريكية. هذا العطل للبلدوز أنعش مسمياته، خاصة "المدمرة كول". فرحت غاردا، غنت ورقصت وأكلت بشهية مفتوحة وهي تغني تلك القصيدة الثورية.

ارتبكت السلطات وغضب المشرف من نائبه وطلب منه أن يأخذ إجازة قصيرة، يذهب لأهله ولا يفعل أي شيء يثير مزيداً من البلبلة. ولتهدئة الوضع أعلن المشرف صرف ربع مرتب لجميع المعلمين والموظفين بالمكاتب الخدمية، كما أعلن عن وصول لقاحات شلل الأطفال وأدوية وصرف نصف راتب للمشمولين بنظام الضمان الاجتماعي. أنزلت الياقظات وصور أبو بدر.

فجأة عادت ظاهرة اختطاف الجن للماشية التي يربها الناس جوار البيوت. عادت شائعات الجن وظهرت جثة عجل كبير ببطن مبقورة. قيل إنها الغوريلا. استخدمت الميليشيات كل الأدوات الشيطانية لتعيد صناعة الخوف في قلوب الناس.

أوعزت الميليشيات للبلدوز الأصفر أن يقود مسيرة ذات تقاليد ومظاهر وثنية، وينطلق بها لضريح ابن عجيل، وعمل مخيم سموه "الحج لولي الله"، ذبح قرابين وطواف بالضريح. نجحت وسائلهم وكأن الناس نسوا القصيدة والثورة.

الفصل السادس عشر

فشلت الفرقة العسكرية الهندسية في إصلاح البلدوز الأحمر، أحضروا قاطرة ضخمة ورافعات لنقله إلى مكان آخر، لكن بعض هذه الآليات تعطل وانكسر ذراع رافعة ضخمة. عاد الحديث عن البلدوز وأن ابن العجيل صدق بعبارته: بيت الفقيه أنا بحرهما وجبلها. تحول البلدوز لحديث كل الناس، حضرت الكثير من الآلات وتم شق طريق عام جديد مسفلت وخالٍ من أي حفر، وبُني سور حول البلدوز المعطل. فشلت خطط المشرف في أن يُلمي الناس بالجن والغوريلا والحج الوثني لولي الله ابن عجيل. ظهرت عشرات القصائد والأغاني الشعبية تتغنى بالولي وتسخر من البلدوز والمشرف.

هدد المشرف بجلب عشرة بلدوزات، واجتمع بالأعيان والتجار والمسؤولين ورجال الدين المقدسين لسلطانته وطالهم بإخراص كل الألسنة. بدأت الآليات الكبرى ببناء سجن ضخم مجاور للمدرسة، بدأ العمل ليل نهار كأنهم في سباق مع الزمن. تهامس الناس أن المدينة تدر دخلاً بالملايين يوميًا ولم تعمل السلطة على ترميم أي حائط مدرسي أو إضافة غرفة صغيرة بمستوصف المدينة.

نشطت غاردا وسط الطالبات وشكلت خلية نسوية سرية. زار السوقطري بيت خطيبته، أخبرته بريشيا بقلقها ووصفت أختها الصغيرة بالمجنونة، لكن غاردا تحدثت بمنطق ورؤية نسوية تُطرح لأول مرة في المدينة، وطلبت من السوقطري أن يعلمها عمل ريبورت خاص بها على الذكاء الاصطناعي. أخبرت أختها أن الجيل الجديد في اليمن لا يختلف عن جيل زد الذي أسقط حكومات وديكتاتوريات وهزّ عروش الاستبداد في آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية.

وبخ المشرف أعوانه وطرد مدير الأمن، بل اتصل بوزارة الداخلية يطلب مدير أمن جديد صاحب خبرة وحنكة وليس صبيًا ما يزال بالحفاضة، ورفض عودة نائبه نصير الحق. أعلن حالة طوارئ قوية وحظر تجول ليلي عندما رأى أول رسالة مفتوحة على وسائل التواصل الاجتماعي من جيل زد في بيت الفقيه. تهامة اليمن. إلى رموز الخرافة والتخلف والاستبداد.

الفصل السابع عشر

توالت الهاشتاجات المتمردة من بيت الفقيه وانتقلت العدوى ببطء إلى بعض المدن التهامية. اجتمع مشرفو المدن ومشرف المحافظة وقرروا إبطاء حركة النت دون قطعه، وعمل خلية أزمات للتنسيق والتعاون وتطوير عملية الشد والجذب، أو خلق هموم وقصص أخرى، شيء يُلهي الشباب. تم صرف رواتب ومكافآت للمعلمين وأساتذة الجامعة المتعاونين. اقترح مشرف المحافظة بأن يتم استحداث مخيمات الصمود والتحدى، معسكرات صغيرة وتعبئة فكرية مليئة بحب التضحية والشهادة، وقال: نريد من الشباب أن يروا الجنة والروح العين وأنهار اللذة كلها.

بدأ تنفيذ هذه الخطة، انخرطت بريشيا مع السوقطري والذكاء الاصطناعي وأختها في العمل الوطني. زاد الاحتقان، أغلقت السلطات الجامعة والمدارس ثم أعادت فتحها وتشديد الرقابة وتطوير أساليب التجسس بشراء تقنيات تعتمد على الذكاء الاصطناعي عبر شركة خارجية وخبراء من إيران، ويوجد تهامس بأن السلطات اشترت تقنية من دبي أصلها إسرائيلي. لم يعد شعار الموت لأمريكا وإسرائيل هو الذي يُرفع، بل شعار الخونة والخيانات والطابور الثالث وشق عصا الجماعة.

كوّن البلدوز الأصفر فرقة من الخطباء، يتحدثون للناس عن ميتة الجاهلية وغضب الله من عصيان ولي الأمر، وانتشرت فتوى أن الذكاء الاصطناعي حرام. قال البلدوز الأصفر: إنَّمُ قلبه، يلوث روحه من يتصل بالذكاء حق النصارى واليهود.

في غمرة هذه الصراعات وتطورها، تقرب السوقطري من خطيبته، وذات مرة فوجئاً باقتراح غريب من الأخت غاردا حيث قالت لهما: ما رأيكما أن أزوجهما أنا وسهام؟ سهام الروبوت الذكي الذي ابتكرته غاردا.

ضحكت بريشيا بالبداية ثم بدأت تناقش منطقية الاقتراح. حكمة الزواج الحب وحفظ النسب، أما الأشياء الأخرى فهي شكلية. فكرت بصوت مسموع وقالت: نحن جيل 2029، هل يمكن أن ننتظر من بلدوز تافه وجهل يكتب شهادة حسن سيرة وسلوك لنا؟ لماذا هم يتزوجون في ساعة ونحن ننتظر شهوًّا وندفع الآلاف لهم؟ أنا موافقة.

الفصل الثامن عشر

تلعثم السوقيطي عندما وافقت بريشيا أن تتزوجه وأن يكتب عقد الزواج الروبوت سِهام. حُشر في زاوية ضيقة، لو رفض فربما يخسر بريشيا، ولو قبل وتم كشف سره قد يُحاكم يُرجم كفاسد مفسد وربما كافر لأنه استخدم تقنية وخوارزميات وروبوتًا ذكيًا في شيء خطير كالزواج.

تم عقد الزواج وتم التوقيع عبر بصمة الصوت والعين. طوّرت غاردا الروبوت سِهام وظهرت عدة روبوتات ابتكرها شباب وشابات من تهامة. حدث حراك ثقافي بجمع الموروث الشعبي الجميل الذي يحتفي بالعاطفة والحرية وحب الأرض، وتشكّلت غرف دردشة ونقاشات فكرية وأدبية. جيل زد . تهامة اليمن . لن يقلد النماذج السابقة، سوف يستفيد من كل الأخطاء السابقة.

حرب ضروس خفية بين جيل زد وسلطة الميليشيات التي جلبت ضابطًا مهمًا درس في أمريكا ويفهم كيف يفكر جيل زد، ويعرف أنه يواجه جيل 2029 بأحلامه وتطلعاته. الضابط سيف الباشا لا يقدم نفسه مجاهدًا، هو "الأفندم العقيد سيف الباشا". يُقال إنه طلب عدم ترقينه وأن يحتفظ برتبة العقيد، تعجبه الرتبة ولقب "الأفندم". نشر جيل زد رسالة مفتوحة بعنوان: إلى الأفندم العقيد. حوت خطابًا تُذكّر الأفندم أنه عاش سنوات ودرس في أمريكا وسافر لبلدان كثيرة تعيش الحرية، أو على الأقل يمكنها أن تتظاهر وترفع صوته. واستغرب الشباب كيف لشخص عاش في النور يتحول للكلب وليس لميليشيات متخلفة.

بدأ العقيد بحبك أول مؤامرة، وكانت خطة تروّج لشائعات وجود فساد أخلاقي داخل الكليات الجامعية ومدرسة البنات عبر برك فيديوهات ورسائل صوتية لممارسات جنسية جماعية وسحاقية. حدثت بليلة كبيرة وغضب شديد من الناس، وتظاهرت

جموع من الناس وأحرقت إحدى الكليات. ضحك الأفندم وهو يفتخر بخطته ويقول:
الآن صراع بين الكليات والمدارس والناس، نخلهم يحرقوها ويغلقوها، والآباء هم من
سيضرب هؤلاء الصغار.

تلقى جيل زد صفعة موجعة لكنه بدأ يمتصها ويحاول تنظيم صفوفه وأن يثبت
وجوده.

الفصل التاسع عشر

تمكن العقيد الأفندم من تشكيل وحدة من الروبوتات تعمل ليل نهار، تتجسس، تجمع البيانات، وتعد خططاً ومسارات متعددة: خطة (أ) وخطة (ب)، وتتخيل أسوأ السيناريوهات. أعلن مشرف كل مدينة عن مكافأة لكل أب يربي بنته وولده تربية ربانية، وتقديم الشباب للتطوع في الجهاد مع مزايا مادية تصل لمنح أسرة الشهيد عشرين مليون ريال إذا استشهد ابنها، وراتب مليون ريال سنوياً يُمنح لعائلة المجند، وإذا استشهد يرتفع الراتب إلى اثنين مليون سنوياً مع امتيازات أخرى.

تم انتخاب غاردا كرئيسة لجيل زد، لم يكن أحد يعرفها، انتخب الشباب الروبوت سِهام. تمكنت غاردا من اختراق أحد حواسيب العقيد وأسر أحد الروبوتات والتحقيق معه في بث حي أحدث صدمة كبيرة في اليمن كلها. مع ذلك لم تهتم قنوات الجنوب بالحدث، لم تساند جيل زد التهامي، ولم يهتم الإعلام العربي بهذه القضية، نقلوا الخبر كقفشة غريبة: أسر روبوت حكومي والتحقيق معه.

استعاد الشباب قوتهم وإيمانهم بقضيتهم، وفهم الكثير من الآباء بعض ما يحدث. وصلت إلى تهامة مئات العربات العسكرية، تم تفجير إحدى الكليات وقيل إن الشباب خزّنوا متفجرات. أعلنت الميليشيات قانوناً سمته "حد الحراة": فوضى واعتقالات ومشانق. في ظل كل هذا وصل نصير الحق الذي كان نائباً للمشرف، وصل متخفياً وجند البلدوز الأصفر وعصابته من أجل خطف غاردا.

كادوا ينجحون عندما اختبأوا في مدرسة قريبة من منزلها، لم يكونوا يعلمون أنها مفخخة وسوف يتم تفجيرها. حدث تفجير هائل هز بيت غاردا وسقط سقف غرفتها كاملاً، ولحسن حظها أنها كانت مع أختها. تتسع رقعة الخراب وتزيد كل لحظة مع حرب ضروس بين روبوتات العقيد وروبوتات جيل زد، وتمكن العقيد من أسر الروبوت سِهام وعرض صورته وإعلان الخبر.

الفصل العشرون

بالغ العقيد بالثقة في نفسه وتقنياته، ولمدة أربع وعشرين ساعة كاملة تم استجواب الروبوت سِهام التي رفضت في البداية الكلام. ابتكر مبرمجو العقيد ما يشبه غرفة التحقيق والتعذيب الخاصة بالروبوتات. فرح العقيد عندما انهارت سِهام وبدأت تعرض سيلاً كبيراً من المعلومات عن خطط الجيل وأهدافهم وتصورهم لإسقاط العاصمة صنعاء وطلب حماية دولية. نقل العقيد المعلومات للقادة الكبار وللسيد في الكهف، وسرعان ما تمت مكافأته برتبة لواء ودرجة وزير. نُشر الخبر في قناة المسيرة والجريدة الرسمية.

أعلن اللواء عن مؤتمر صحفي ليوضح ارتباط جيل زد بالموساد والمخابرات الأمريكية، وأنه سيعرض الروبوت سِهام ويمكن أن تدلي باعترافها. بدأت حكومة صنعاء تكتب مذكرات وترسل ملفات إلى كل أجهزة المخابرات العربية تلخّص هذه التجربة لأن ما حدث في اليمن يمكن أن يحدث في كل المدن العربية، واعتبرت أن ما حدث عملية إرهابية خطيرة.

نفث إسرائيل وأمريكا وبريطانيا كل تهم ميليشيات صنعاء، وأن ما يحدث شأن يمني. تجمع الناس لمشاهدة المؤتمر الصحفي للواء الباشا. ظهر أنيقاً وبدلة مدنية ومبتسماً، تحدث عن نصر الجهاز الأمني في صنعاء وخطر هذا الجيل، وعرض معلومات كثيرة، ثم بدأ استجواب الروبوت سِهام، حيث بالبداية أكد رواية اللواء ثم ضحك كثيراً ليعترف أن أسره كان خطة لاختراق منظومة الباشا. والفضيحة الكبرى أن أغلب تقنياته التجسسية والقمعية تم شراؤها من شركات أجنبية، وأرسل الروبوت سِهام ملفاً ضخماً لأكثر من مئة وكالة إخبارية عالمية.

عجّزت تقنية اللواء الباشا عن إسكات الروبوت سِهام. أخيرًا تمكنت سِهام من الهرب وأخذت معها آلاف الملفات لوزارة الداخلية والمخابرات، كان منها ملفات ضخمة للسجناء والمختطفين السياسيين والذين تم إعدامهم والمتورطين في التعذيب، والأخطر: من أين تشتري الميليشيات أدوات التعذيب والتجسس والإعدامات.

الفصل الواحد والعشرون

سقط اللواء سيف الباشا، وسقط جميع المشرفين ونوابهم في كل مدن تهامة. أخذ القائد من كهفه القيادة وعيّن مسؤولين جدد، على رأسهم شيخ عنيف يلقبونه بالحجاج لأنه دموي، مروغ، متوحش لا يرحم، وسفك الدماء عنده كسكب الماء. يجب أن تعود تهامة للدولة، وهذا الجيل يجب ترويضه.

أقرت قوانين تُجيز مصادرة الأراضي وتفجير البيوت.

حدث ضجيج عالمي سُمي فضيحة سِهام تشبه ما حدث في فضائح سابقة عالمية وخاصة "وثائق بنما" و"ويكيليكس". استقال بعض الوزراء ومسؤولين في بعض الدول، واهتمت بعض وسائل الإعلام بالسؤال الأخلاقي: من يدعم نظمًا وميليشيات رجعية عنيفة في اليمن ودول أفريقية؟ ولماذا يراد أن تطول حياة هذه الجماعات؟ دول تقدّم جوائز عالمية للحرية والسلام، ولكن كيف ولماذا تتورط في قضايا فساد لدعم جماعات شريرة ومصنفة كجماعات إرهابية؟

صحفي كبير أمريكي كتب مقالًا بعنوان "سِهام التي فضحتنا"، لكن المقال حُذف من الموقع العالمي بعد ساعة واحدة.

صحيفة بريطانية شهيرة نشرت ملفًا ضخماً عن فساد المنظمات الإنسانية، واستفادة قائمة شخصيات وشركات أوروبية وأمريكية صُرّفت لهم مبالغ فلكية كرواتب وحوافز لعملهم الإنساني على مدار أربعة عشر عامًا، وسمّت هذا الحدث الفضيحة الصغرى.

عمّ الفرح بيت الفقيه، وفي بيت بريشيا، وفي قمة هذا النصر، اكتشف الأب أن سِهام — الروبوت — قد قام بتزويج بريشيا بالسوقطري. كانت لحظة مريكة. عاد الأب يسأل:

يعني كيف أنتما متزوجان؟ كيف سِهام تزوجكما؟ يصلح واحدة تكون مأمونة أو مأذونة أو قاضية؟

خافت بريشيا أن يسقط أبوها ويصاب بجلطة. تلعثم السوقطري. لم تنجح بريشيا في الرد على واحد من عشرات الأسئلة التي تتفجر في رأس والدها.

نهضت غاردا، وبدأت بسلاسة وهدوء تعرّف والدها بأن سِهام هي نظم وجيل، وأنها أسقطت العقيد وجيشًا من العملاء والمخبرين.

صمت الأب، ثم بكى، ثم ضحك، ثم شتمهم وقال:

“مبروك يا كلاب! لماذا لم تشاركوني معكم من البداية؟ خلّوني أشوف سِهام وأقولها إنني موافق أزوّج ابنتي الحرة البكر للسوقطري.”

الفصل الثاني والعشرون

وصل الحجاج إلى الحديدية كمشرف لكل مدن تهامة، أعلن فور وصوله رفع حظر التجول وسحب كل القوات، وأعلن تفكيك البلدوز الأحمر، وحثّ الناس على أن يعيشوا حياتهم بشكل عادي، وسهّل فتح الطرق بين المدن. كانت توقعات الجميع أن يضرب الحجاج بيد فولاذية مدمرة.

تحدثت غاردا والمجموعة لمدة ساعة كاملة مع سِهام لفهم مسارات الحجاج وخططه. تعبوا من قراءة تحليل شخصيته، وتبدو شخصية معقدة. يُقال إنه سادي، مشهور بأنه مزواج، فهو يتزوج امرأة كل شهر ويعطيها صداق خمسة ملايين مقدم وخمسة أخرى مؤجل. رجل بيده مفاتيح خزائن الدولة وثروة مدفونة في شركات كثيرة داخل اليمن وخارجها.

جاء اليوم المشهود وتم هدم السور حول البلدوز الأحمر. حضرت فرقة هندسية وقاطرات ثم حضر الحجاج، أخذ المفك وفك أول مسمار في البلدوز، ثم بدأت الفرقة الهندسية بتفكيكه قطعة قطعة بهدوء وحرفية، وبعد أكثر من عشر ساعات تم تفكيكه كاملاً ووضعته بأكثر من قاطرة. ظن بعض الناس أنها نهاية للبلدوز الأحمر، انتهت مهمته. قالت غاردا: هم فكّوا البلدوز الأحمر، لكن بلدوزًا بشريًا مدمرًا سيحل مكان الآلة.

حدّرت زملاءها من عدم الثقة به. أعلن الحجاج أنه سوف يستقبل الشباب في المدرج الجامعي الضخم الذي يتسع لألف شخص، ويمكن للشباب أن يقولوا ما يريدونه. أغدق المال على المعلمين والأساتذة ليجمعوا أكبر قدر من الشباب، ورفع شعار المصارحة والمصالحة وأن تُغلق أبواب المصارعة.

اتّبع الحجاج أساليب ثعلبية مأكرة، يبتسم، يسلم بتواضع على الكبار والصغار. جاءت اللحظة بوجود أكثر من مئتين طالب وطالبة، حتى بريشيا والسوقطري وسانان حضروا. رفضت غاردا الحضور رغم أن سِهام لم يحذر من خطر. ما حدث يصعب وصفه: فعلها الحجاج بعنف قذر، بعد أن اطمأن الشباب فتح عليهم النار. مذبحة تشبه مذبحة القلعة أو مذبحة الإنكشارية، شيء سادي ووحشي لا أحد يتصور أن يحدث في عام 2029.

الفصل الثالث والعشرون

سمع الناس سقوط السقف الجامعي قبل أن تدخل سيارات الحجاج برفقة عشرات الأعيان والصحفيين. أعطى الحجاج أوامره بضرورة إسعاف الناس. نزل من سيارته وقال: استخدموها كسيارة إسعاف.

لكن حجم الكارثة كان مهولاً، ويبدو أن لا ناجين. انتشر خبر سقوط سقف المدرج الجامعي بوجود ما يقرب من مئتي طالب وطالبة. وصلت سيارات إسعاف، وهنا ظهرت مفاجأة لم يتوقعها أحد: بلدوز رمادي اللون. تهاشم الناس: إنه هو البلدوز الأحمر، فكّوه وأعادوه وغيّروا لونه. بدا أن ما حدث مسرحية مفضوحة، عاد البلدوز الهادم ويطلبون منه الآن أن يساهم في إنقاذ الشباب.

كان المدعوون نصفهم من بيت الفقيه ومئة من عموم مدن تهامة. حلّ الليل وأحيطت المنطقة بسياج، فعملية انتشار الضحايا قد تستمر مدة أسبوع.

قيل إن المدرج كان قرب مختبر كيميائي وحدث انفجار، وقيل ربما حدث هجوم وعدوان على الجامعة ظناً بأن مسؤولين كبار سيحضرون اللقاء. تم أخذ هذه الرواية: عدوان خارجي ضمن سلسلة كبيرة وطويلة من العدوان ضد شعبنا اليمني، وسوف يُعلن الحداد لثلاثة أيام ويُصرف مليونان ريال لكل ضحية من الذكور ومليون واحد عن الأنثى.

أصببت غاردا بالذعر، تفكيرها معطل، بدأت تحاول استعادة عقلها وأن تسأل سهام ما حدث. كان النت بطيئاً جداً، بدأت محاولة الاتصال بطرق أخرى ما بعد الإنترنت. بعد عشر محاولات ظهرت سهام.

سألته غاردا: طلبت منك اختراق هاتف أي مرافق من مرافقي الحجاج وربطتك بهاتف بريشيا، أين بريشيا والسوقطري؟ وماذا حدث هناك؟

ردّت سهام: صُور المشهد رغم مصادرة الهواتف. التقطتُ إشارات كاميرات خفية لقلم طالبة، ولزّز قميص طالب، وهناك 7 ثوانٍ من الجريمة، وهي كافية لإدانة الحجاج أمام العالم. خطة المذبحة لم تكن ارتجاءً؛ تم تفخيخ المدرج بمواد تشبه المواد التي تُستخدم في صناعة الصواريخ والقنابل حول العالم.

صرخت غاردا تسأل عن بريشيا، بكت وترجّت الروبوت سهام أن يفعل شيئاً، أن يجلب أي معلومة عن بريشيا أو أي شخص لا يزال حيّاً.

الفصل الرابع والعشرون

حدث تشويش، ويبدو تعطيل الإنترنت وكل وسائل التواصل على طول منطقة البحر الأحمر. هطل المطر بغزارة واستمر لعدة ساعات، وكل هذا أدى إلى تأجيل رفع الأنقاض، كما حدث انفجار خزان مائي ضخيم؛ غرقت منطقة الانفجار وغمرتها المياه، ثم عاد المطر ليهطل وأدى إلى تفجير المجاري، فزادت التعقيدات. سلّم أغلب الناس بالقدر، وقرر الحجاج منح الضحايا صفة شهيد مدني وصرف عشرة آلاف ريال راتبًا شهريًا لكل ضحية أنثى، وعشرين ألفًا للذكور، تُمنح لعوائلهم، كما قرر الحجاج تسمية المدينة مدينة شهداء العدوان.

تم تعليق لافتات ضخمة تحيي الشهداء، وفي وسط المدينة وُضع حجر الأساس لنصب تذكاري لهم. أعلام خضراء ولافتات وسرادق ضخمة جدًا للعزاء، تم ذبح ثور ضخم وثلاثة جمال وعشرة خرفان. عمّت الحركة داخل السرداق، وفي الخارج المطر لم يتوقف. المدينة تستقبل المعزين وعائلات الضحايا من المدن الثانية. أُعلنت أسماء الضحايا، ولم يكن اسم بريشيا ولا السوقطري ضمن القائمة.

عادت غاردا تحاول استعادة سهام. المسألة لم تكن عطلاً فنيًا؛ هناك شيء يحدث، مئات الآلاف من الإشارات تحاول قرصنة واختراق سهام. لكل شيء بداية ونهاية. تمنّت غاردا أن تأخذ السبع الثواني التي ستدين الحجاج، أن تقول سهام ولو كلمة عن مصير أختها بريشيا. منذ تصميم سهام ومنذ الاستخدام الأول خلقت برنامجًا سمّته عزرائيل، أي الموت، بحيث يقضي على سهام في حال تعرضها للقرصنة.

بكت غاردا بحرقة وودّعت سهام، ثم فعلت عزرائيل، وتمكّن في خلال ثوانٍ قليلة من جعلها تموت ويموت كل شيء حملته، حتى أبسط كلمة وحرف، ليس له معنى... فناءً أبدي للذاكرة.

دخل الأب حزينًا كسيرًا، بدا منهًا، ثم فُتح الباب. دخلت سهام — شابة جميلة — توجهت نحو غاردا، احتضنتها وشاركتها البكاء. قالت سهام: ستعود بريشيا، أشعر بها حيّة.

سأل الأب ابنته: من اسم صديقتك؟

قبضت غاردا على أنفاسها وقالت: إنها سهام، صديقتي سهام من مدينة أخرى وستكون ضيفتنا إلى نهاية العام الدراسي.

الفصل الأخير

مضت ثلاثة أيام ممطرة، دخان قدور اللحوم يخرج من سرادق الحجاج، لا يُمنع من الأكل أي إنسان. لم تعد القنوات الفضائية تذكر سهام ولا فضيحتها، كأنها لم تكن، وحتى يصعب قراءة المقالات حولها، كل شيء مُحي وكأن المطر هو الفاعل؛ مطر وبرودة ثم جوع ثم أكل في سرادق الحجاج، ثم تعود الناس إلى بيوتها يدعون الله أن يوقف المطر، فالبيوت والسقوف الضعيفة لن تحتمل أكثر.

في صباح اليوم الرابع من الحادثة توقف المطر وأشرقت الشمس بقوة عجيبة. عادت ببطء عملية الإنقاذ، وقريبًا سيقام مهرجان الشهداء، وهو مناسبة يحتفل بها النظام ويقدم شهداءه. ارتفعت صور شهداء القادة ومن ضمنهم المجاهد أبو بدر، وتم عمل مزار رسمي لأبو بدر الذي اغتالته يد العمالة.

غادر الحجاج مدينة الشهداء. هكذا طلب أن تُسمى رسميًا. وعيّن أحدهم مشرفًا ورسم له خط العمل.

رفضت غاردا قبول العزاء في أختها، إنها تظل بصحبة صديقتها سهام التي تكتب الشعر والقصص. في منتصف نهار هذا اليوم حدث ضجيج؛ جاءت مجموعة من الناس يحملون بريشيا والسوقطري، كانا في حالة سيئة لكنهما أحياء. بعد أسبوع من الرعاية والعلاج أفاقت بريشيا، وبعد يومين آخرين أفاق السوقطري. لا يتذكران أي شيء مما حدث لهما خلال كل هذه الفترة. قالت سهام: ربما الصدمة، فما بعد الصدمة يكون أقسى وأعنف من الصدمة نفسها.

تذكرت بريشيا كل ما حدث قبل الحادثة، لكنها عجزت أن تتذكر ولو لقطة أو صورة مما حدث خلالها، وكذلك السوقطري. محاولات التذكر تصيبها بصداع نصفي قاتل.

قررت بريشيا أن تحيا حياتها؛ يقال إن الزواج أصبح ممكنًا بدون أي معاملات ولا شهادة حسن سيرة وسلوك.

ظهرت غاردا جميلة ومبتسمة، سألتها بريشيا: من هذه؟ لم تخبريني أن لكِ صديقة، تبدو مقربة جدًا.

أمسكت غاردا بيد صديقتها، تبادلتا الابتسامة والعناق، وقالت غاردا: هذه صديقتي سهام... إنها أكثر من صديقة.

سيرة إبداعية موجزة

Hamid Oqabi

(حميد عقبي)

حميد عقبي، كاتب وناقد، فنان تشكيلي ومخرج سينمائي ومسرحي يمني مقيم في باريس.

يعمل منذ سنوات على مشروع متعدد الحقول يدمج بين الأدب، والفنون البصرية، والسينما، والعمل الثقافي العام.

يكتب بعين سينمائية واضحة، وبلغة تمزج الحسّ التهامي اليمني بالخبرة العربية الواسعة، ويشغل على موضوعات الذاكرة، المنفى، الهجرة الداخلية والخارجية، والهوامش الاجتماعية والثقافية.

أنجز عقبي عشرة أفلام قصيرة، وشارك بها في مهرجانات عربية وأوروبية، كما أقام عشرة معارض تشكيلية في باريس ومدينة كون. النورماندي، مقدّمًا رؤية بصرية تميل إلى التعبيرية، وتقاطعاتها مع الجسد والذاكرة والمكان.

في الأدب، يمتلك رصيدًا واسعًا يشمل:

ست مجموعات قصصية

ثمانية أعمال شعرية

تسعة عشر نصًا مسرحيًا

تسعة وعشرون نوفيلًا، بينها سبع مكتوبة بتقنية خمسين فصلًا في مئة كلمة

ثلاثة عشر كتابًا في النقد السينمائي

خمسة عشر كتابًا في النقد الأدبي

تُرجمت بعض كتبه ونصوصه لعدة لغات كالإنجليزية والألمانية والفرنسية.

له ديوان ربما الخلل في نجومنا مترجم للألماني ورواية الشجرة الأم مترجمة للإنجليزية

وأربع نصوص مسرحية للإنجليزية وكذلك كتاب نقدي تُرجم أيضًا للإنجليزية.

نشر ثلاثة كتب باللغة الفرنسية.

نشر ثلاثة كتب نصوص سيناريو لأفلام طويلة غير منفذة.

أسّس ويرأس المنتدى العربي للأوروبي للسينما والمسرح، الذي بات منصة فاعلة

للتواصل الثقافي بين المبدعين العرب والوسط الفني الأوروبي، وقدم عبره مئات

الندوات والأمسيات والحوارات النقدية.

يميل عقبي في فنه وكتابته إلى التجريب، سواء في البناء الروائي، أو في اللغة، أو في

مقاربة السرد بوصفه مساحة للحفر في الذات الفردية والجماعية. لا ينتهي إلى

مدرسة واحدة، لكنه يتنقل بين الأجناس بروح باحث وفضول شاعر، ويعتمد في

أعماله على صوت إنساني قريب من الناس، وعلى رغبة في كشف المناطق المهملة من

الوجدان اليمني والعربي.

تقوم تجربته على فكرة أساسية:

أن الثقافة فعل مقاومة، وأن الإبداع يمكنه أن يفتح نافذة صغيرة في وجه العتمة،

مهما كانت قاسية.

له قناة ثقافية نشطة على يوتيوب، تتوفر فيها مئات المواد الثقافية والإبداعية وأنشطة المنتدى العربي الأوروبي للسينما والمسرح.

<https://www.youtube.com/@aefctarabeuropean-hamidoqabi>

Brief Creative Biography

Hamid Oqabi

(حميد عقي)

Hamid Oqabi is a Yemeni writer and critic, visual artist, and film and theatre director based in Paris. For many years, he has been working on a multidisciplinary project that brings together literature, visual arts, cinema, and cultural practice.

He writes with a distinctly cinematic eye and a language that blends the Tehami Yemeni sensibility with a broad Arab cultural experience. His work often explores themes of memory, exile, internal and external migration, and social and cultural margins.

Oqabi has directed ten short films that have been screened at Arab and European festivals. He has also held ten visual art exhibitions in Paris and in Caen, Normandy, presenting an expressive visual approach that intersects with the body, memory, and place.

In literature, his body of work includes:

- Six short story collections
- Eight poetry books
- Nineteen theatrical texts
- Twenty-nine novels, including seven written using the “50 chapters × 100 words” technique

- Thirteen books on film criticism
- Fifteen books on literary criticism

Some of his books and texts have been translated into several languages, including English, German, and French. His poetry collection *Perhaps the Flaw Is in Our Stars* has been translated into German, his novel *The Mother Tree* into English, along with four theatrical texts and one critical book translated into English as well.

He has published three books in French and three books consisting of screenplays for feature-length films that have not yet been produced.

Oqabi is the founder and president of the Arab—European Forum for Cinema and Theatre, which has become an active platform for cultural exchange between Arab creators and the European artistic scene. Through this forum, he has organized and presented hundreds of seminars, cultural evenings, and critical dialogues.

In his art and writing, Oqabi is drawn to experimentation—whether in narrative structure, language, or in approaching storytelling as a space for probing both individual and collective experience. He does not belong to a single school, but moves freely between genres with the spirit of a researcher and the curiosity of a poet. His work relies on a human voice close to everyday life and on a desire to uncover neglected areas of Yemeni and Arab emotional and cultural experience.

His creative vision is grounded in a core belief:

that culture is an act of resistance, and that creativity can open a small window of light in the face of darkness, no matter how harsh.

He also runs an active cultural YouTube channel featuring hundreds of creative and cultural materials, as well as the activities of the Arab–European Forum for Cinema and Theatre:

<https://www.youtube.com/@aefctarabeuropean-hamidoqabi>

الفهرس

إهداء.....	3
هذا الكتاب: ثلاث روايات قصيرة.....	5
تقديم.....	7
الهلوانة.....	11
الفصل الأول.....	15
الفصل الثاني.....	20
الفصل الثالث.....	24
الفصل الرابع.....	28
الفصل الخامس.....	31
الفصل السادس.....	34
الفصل السابع.....	37
الفصل الثامن والأخير.....	40
ميكروباص صنعاني.....	43
تقديم.....	46
الفصل الأول.....	49
الفصل الثاني.....	51
الفصل الثالث.....	54
الفصل الرابع.....	56
الفصل الخامس.....	58
الفصل السادس.....	60

63	الفصل السابع
65	الفصل الثامن
67	الفصل التاسع
70	الفصل العاشر والأخير
73	بلدوز أحمر
77	الفصل الأول
79	الفصل الثاني
81	الفصل الثالث
83	الفصل الرابع
85	الفصل الخامس
87	الفصل السادس
89	الفصل السابع
91	الفصل الثامن
93	الفصل التاسع
95	الفصل العاشر
97	الفصل الحادي عشر
99	الفصل الثاني عشر
101	الفصل الثالث عشر
103	الفصل الرابع عشر
105	الفصل الخامس عشر
107	الفصل السادس عشر
109	الفصل السابع عشر

111	 الفصل الثامن عشر
113	 الفصل التاسع عشر
114	 الفصل العشرون
116	 الفصل الواحد والعشرون
118	 الفصل الثاني والعشرون
120	 الفصل الثالث والعشرون
122	 الفصل الرابع والعشرون
124	 الفصل الأخير
126	 سيرة موجزة- حميد عقي
133	 الفهرس